كتاب شرح عجائب القلب

وهو الكتاب الأول من ربع المهلكات
بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الـذي تتحـير دون إدراك جلاله القلـوب والخـواطر وتـدهش في مبـادي إشـراق أنواره الأحداق والنواظر المطلع على خفيات السرائر العالم بمكنونات الضمائر المستغني في تـدبير مملكته عن المشـاور والمـوازر مقلب القلـوب وغفـار الـذنوب وسـتار العيـوب ومفرج الكروب والصلاة على سيد المرسلين وجـامع شـمل الـدين وقـاطع دابر الملحـدين وعلى آله الطيبين الطاهرين وسلم كثيرا أما بعد فشرف الإنسـان وفضـيلته الـتي فـاق بها جملة من أصناف الخلق باستعداده لمعرفة الله سبحانه الـتي هي في الـدنيا جماله وكماله وفخره وفي الآخرة عدته وذخره وإنما استعد للمعرفة بقلبه لا بجارحة من جوارحه فالقلب هو العـــالم بالله وهو المتقـــرب إلى الله وهو العامل لله وهو الســـاعي إلى الله وهو المكاشف بما عند الله ولديه وإنما الجوارح أتباع وخدم وآلات يستخدمها القلب ويسـتعملها استعمال المالك للعبد واسـتخدام الـراعي للرعية والصـانع للآلة فـالقلب هو المقبـول عند الله إذا سـلم من غـير الله وهو المحجـوب عن الله إذا صـار مسـتغرقا بغـير الله وهو المطالب وهو المخاطب وهو المعاتب وهو الذي يسعد بالقرب من الله فيفلح إذا زكاه وهو الـذي يخيب ويشـقى إذا دنسه ودسـاه وهو المطيع بالحقيقة لله تعـالى وإنما الـذي ينتشر على الجوارح من العبادات أنواره وهو العاصي المتمرد على الله تعالى وإنما السـاري إلى الأعضاء من الفواحش آثاره وبإظلامه واستنارته تظهر محاسن الظاهر ومساويه إذ كل إناء ينضح بما فيه وهو الـذي إذا عرفه الإنسـان فقد عـرف نفسه وإذا عـرف نفسه فقد عـرف ربه وهو الـذي إذا جهله الإنسـان فقد جهل نفسه وإذا جهل نفسه فقد جهل ربه ومن جهل قلبه فهو بغـيره أجهل إذ أكـثر الخلق جـاهلون بقلـوبهم وأنفسـهم وقد حيل بينهم وبين أنفسـهم فـإن الله يحـول بين المـرء وقلبه وحيلولته بـأن يمنعه عن مشـاهدته ومراقبته ومعرفة صـفاته وكيفية تقلبه بين أصـبعين مع أصـابع الـرحمن وأنه كيف يهـوي مـرة إلى أسفل السافلين وينخفض إلى أفق الشياطين وكيف يرتفع أخرى إلى أعلى عليين ويـرتقي إلى عـالم الملائكة المقـربين ومن لم يعـرف قلبه ليراقبه ويراعيه ويترصد لما يلـوح من خزائن الملكوت عليه وفيه فهو ممن قال الله تعالى فيه نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون فمعرفة القلب وحقيقة أوصـافه أصل الـدين وأسـاس طريق السـالكين وإذ فرغنا من الشطر الأول من هذا الكتاب من النظر فيما يجـري على الجـوارح من العبـادات والعادات وهو العلم الظاهر ووعدنا أن نشرح في الشطر الثـاني ما يجـري على القلب من الصفات المهلكات والمنجيات وهو العلم الباطن فلا بد أن نقدم عليه كتابين كتابا في شرح عجائب صفات القلب وأخلاقه وكتابا في كيفية رياضة القلب وتهـذيب أخلاقه ثم ننـدفع بعد ذلك في تفصيل المهلكات والمنجيات فلنذكر الآن من شرح عجـائب القلب بطريق ضـرب الأمثـال ما يقـرب من الأفهـام فـإن التصـريح بعجائبه وأسـراره الداخلة في جملة عـالم الملكوت مما يكل عن دركه أكثر الأفهام.

بيان معنى النفس والروح والقلب والعقل وما هو المراد بهذه الأسامي

أعلم أن هذه الأسماء الأربعة تستعمل في هذه الأبواب ويقل في فحول العلمـاء من يحيط بهذه الأسامي واختلاف معانيها وحدودها ومسمياتها وأكثر الأغاليط منشـؤها الجهل بمعـنى هذه الأسامي واشـتراكها بين مسـميات مختلفة ونحن نشـرح في معـنى هـذه الأسـامي ما يتعلق بغرضنا اللفظ الأول لفظ القلب وهو يطلق لمعنيين أحدهما اللحم الصنوبري الشكل المـودع في الجـانب الأيسر من الصـدر وهو لحم مخصـوص وفي باطنه تجويف وفي ذلك

التجويف دم أسود هو منبع الروح ومعدنه ولسنا نقصد الآن شرح شكله وكيفيته إذ يتعلق به غرض الأطباء ولا يتعلق به الأغراض الدينية وهذا القلب موجود للبهائم بل هو موجود للميت ونحن إذا أطلقنا لفظ القلب في هذا الكتاب لم نعن به ذلك فإنه قطعة لحم لا قدر له وهو من عالم الملك والشهادة إذ تدركه البهائم بحاسة البصر فضلا عن الآدميين والمعنى الثاني هو لطيفة ربانية روحانية لها بهذا القلب الجسماني تعلق وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان وهو المدرك العالم العارف من الإنسان وهو المخاطب والمعاقب والمعاتب والمطالب ولها علاقة مع القلب الجسماني وقد تحيرت عقول أكثر الخلق في إدراك وجه علاقته فإن تعلقه به يضاهي تعلق الأعراض بالأجسام والأوصاف بالموصوفات أو تعلق المستعمل للآلة بالآلة أو تعلق المتمكن بالمكان وشرح ذلك مما نتوقاه لمعنيين أحدهما أنه متعلق بعلوم المكاشفة وليس غرضنا من هذا الكتاب إلا علوم المعاملة والثاني أن تحقيقه يستدعي إفشاء سر الروح وذلك مما لم يتكلم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] فليس لغيره أن يتكلم فيه والمقصود أنا إذا أطلقنا لفظ القلب في هذا الكتاب أردنا به هذه اللطيفة وغرضنا ذكر أوصافها وأحوالها لا ذكر حقيقتها في ذاتها وعلم المعاملة يفتقر إلى معرفة صفاتها وأحوالها ولا يفتقر إلى ذكر حقيقتها اللفظ الثاني الروح وهو أيضا يطلق فيما يتعلق بجنس غرضنا لمعنيين أحدهما جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجمساني فينشر بواسطة العروق الضوارب إلى سائر أجزاء البدن وجريانه في البدن وفيضان أنوار الحياة والحس والبصر والسمع والشم منها على أعضائها يضاهي فيضان النور من السراج الذي يدار في زوايا البيت فإنه لا ينتهي إلى جزء من البيت إلا ويستنير به والحياة مثالها النور الحاصل في الحيطان والروح مثالها السراج وسريان الروح وحركته في الباطن مثال حركة السراج في جوانب البيت بتحريك محركه والأطباء إذا أطلقوا لفظ الروح أرادوا به هذا المعنى وهو بخار لطيف أنضجته حرارة القلب وليس شرحه من غرضنا إذ المتعلق به غرض الأطباء الذين يعالجون الأبدان فأما غرض أطباء الدين المعالجين للقلب حتى ينساق إلى جوار رب العالمين فليس يتعلق بشرح هذه الروح أصلا المعنى الثاني هو اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان وهو الذي شرحناه في أحد معاني القلب وهو الذي أراده الله تعالى بقوله قل الروح من أمر ربي وهو أمر عجيب رباني تعجز أكثر العقول والأفهام عن درك حقيقته اللفظ الثالث النفس وهو أيضا مشترك بين معان ويتعلق بغرضنا منه معنيان أحدهما أنه يراد به المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة في الإنسان على ما سيأتي شرحه وهذا الاستعمال هو الغالب على أهل التصوف لأنهم يريدون بالنفس الأصل الجامع للصفات المذمومة من الإنسان فيقولون لا بد من مجاهدة النفس وكسرها وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك[2] المعنى الثاني هي اللطيفة التي ذكرناها التي هي الإنسان بالحقيقة وهي نفس الإنسان وذاته ولكنها توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها فإذا سكنت تحت الأمر وزايلها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات سميت النفس المطمئنة قال الله تعالى في مثلها يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية والنفس بالمعنى الأول لا يتصور رجوعها إلى الله تعالى فإنها مبعدة عن الله وهي من حزب الشيطان وإذا لم يتم سكونها ولكنها صارت مدافعة للنفس الشهوانية ومعترضة عليها سميت النفس اللوامة لأنها تلوم صاحبها عند تقصيره في عبادة مولاه قال الله تعالى ولا أقسم بالنفس اللوامة وإن تركت الاعتراض وأذعنت وأطاعت لمقتضى الشهوات ودواعي الشيطان سميت النفس الأمارة بالسوء قال الله تعالى إخبارا عن يوسف عليه السلام أو امرأة العزيز وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء وقد يجوز أن يقال المراد بالأمارة بالسوء هي النفس بالمعنى الأول فإذن النفس بالمعنى الأول مذمومة غاية الذم وبالمعنى الثاني محمودة لأنها نفس الإنسان أي ذاته وحقيقته العالمة بالله تعالى وسائر المعلومات اللفظ

---

[1] حديث أنه صلى الله عليه وسلم لم يتكلم في الروح متفق عليه من حديث ابن مسعود في سؤال اليهود عن الروح وفيه فأمسك النبي صلى الله عليه وسلم فلم يرد عليهم فعلمت أنه يوحى إليه الحديث وقد تقدم

[2] حديث أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك أخرجه البيهقي في كتاب الزهد من حديث ابن عباس وفيه محمد بن عبد الرحمن بن غزوان أحد الوضاعين

الرابع العقل وهو أيضا مشترك لمعان مختلفة ذكرناها في كتاب العلم والمتعلق بغرضنا من جملتها معنيان أحدهما أنه قد يطلق ويراد به العلم بحقائق الأمور فيكون عبارة عن صفة العلم الذي محله القلب والثاني أنه قد يطلق ويراد به المدرك للعلوم فيكون هو القلب أعني تلك اللطيفة ونحن نعلم أن كل عالم فله في نفسه وجود هو أصل قائم بنفسه والعلم صفة حالة فيه والصفة غير الموصوف والعقل قد يطلق ويراد به صفة العالم وقد يطلق ويراد به محل الإدراك أعني المدرك وهو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم أول ما خلق الله العقل[1] فإن العلم عرض لا يتصور أن يكون أول مخلوق بل لابد وأن يكون المحل مخلوقا قبله أو معه ولأنه لا يمكن الخطاب معه وفي الخبر أنه قال له تعالى أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر الحديث فإذن قد انكشف لك أن معاني هذه الأسماء موجودة وهي القلب الجسماني والروح الجسماني والنفس الشهوانية والعلوم فهذه أربعة معان يطلق عليها الألفاظ الأربعة ومعنى خامس وهي اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان والألفاظ الأربعة بجملتها تتوارد عليها فالمعاني خمسة والألفاظ أربعة وكل لفظ أطلق لمعنيين وأكثر العلماء قد التبس عليهم اختلاف هذه الألفاظ وتواردها فتراهم يتكلمون في الخواطر ويقولون هذا خاطر العقل وهذا خاطر الروح وهذا خاطر القلب وهذا خاطر النفس وليس يدري الناظر اختلاف معاني هذه الأسماء ولأجل كشف الغطاء عن ذلك قدمنا شرح هذه الأسامي وحيث ورد في القرآن والسنة لفظ القلب فالمراد به المعنى الذي يفقه من الإنسان ويعرف حقيقة الأشياء وقد يكنى عنه بالقلب الذي في الصدر لأن بين تلك اللطيفة وبين جسم القلب علاقة خاصة فإنها وإن كانت متعلقة بسائر البدن ومستعملة له ولكنها تتعلق به بواسطة القلب فتعلقها الأول بالقلب وكأنه محلها ومملكتها وعالمها ومطيتها ولذلك شبه سهل التستري القلب بالعرش والصدر بالكرسي فقال القلب هو العرش والصدر هو الكرسي ولا يظن به أنه يرى أنه عرش الله وكرسيه فإن ذلك محال بل أراد به أنه مملكة الإنسان والمجرى الأول لتدبيره وتصرفه فهما بالنسبة إليه كالعرش والكرسي بالنسبة إلى الله تعالى ولا يستقيم هذا التشبيه أيضا إلا من بعض الوجوه وشرح ذلك أيضا لا يليق بغرضنا فلنجاوزه.

بيان جنود القلب

قال الله تعالى وما يعلم جنود ربك إلا هو فلله سبحانه في القلوب والأرواح وغيرها من العوالم جنود مجندة لا يعرف حقيقتها وتفصيل عددها إلا هو ونحن الآن نشير إلى بعض جنود القلب فهو الذي يتعلق بغرضنا وله جندان جند يرى بالأبصار وجند لا يرى إلا بالبصائر وهو في حكم الملك والجنود في حكم الخدم والأعوان فهذا معنى الجند فأما جنده المشاهد بالعين فهو اليد والرجل والعين والأذن واللسان وسائر الأعضاء الظاهرة والباطنة فإن جميعها خادمة للقلب ومسخرة له فهو المتصرف فيها والمردد لها وقد خلقت مجبولة على طاعته لا تستطيع له خلافا ولا عليه تمردا فإذا أمر العين بالانفتاح انفتحت وإذا أمر الرجل بالحركة تحركت وإذا أمر اللسان بالكلام وجزم الحكم به تكلم وكذا سائر الأعضاء وتسخير الأعضاء والحواس للقلب يشبه من وجه تسخير الملائكة لله تعالى فإنهم مجبولون على الطاعة لا يستطيعون له خلافا بل لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون وإنما يفترقان في شيء وهو أن الملائكة عليهم السلام عالمة بطاعتها وامتثالها والأجفان تطيع القلب في الانفتاح والانطباق على سبيل التسخير ولا خبر لها من نفسها ومن طاعتها للقلب وإنما افتقر القلب إلى هذه الجنود من حيث افتقاره إلى المركب والزاد لسفره الذي لأجله خلق وهو السفر إلى الله سبحانه وقطع المنازل إلى لقائه فلأجله خلقت القلوب قال الله تعالى وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون وإنما مركبه البدن وزاده العلم وإنما الأسباب التي توصله إلى الزاد وتمكنه من التزود منه هو العمل الصالح وليس يمكن العبد أن يصل إلى الله سبحانه ما لم يسكن البدن ولم يجاوز الدنيا فإن المنزل الأدنى لا بد من قطعه للوصول إلى المنزل الأقصى فالدنيا مزرعة الآخرة وهي منزل من منازل الهدى وإنما سميت دنيا لأنها أدنى المنزلتين فاضطر إلى أن يتزود

---

[1] حديث أول ما خلق الله العقل وفي الخبر أنه قال له أقبل فأقبل وقال أدبر فأدبر الحديث تقدم في العلم

من هذا العالم فالبدن مركبه الذي يصل به إلى هذا العالم فـافتقر إلى تعهد البـدن وحفظه وإنما يحفظ البدن بأن يجلب إليه ما يوافقه من الغـذاء وغـيره وأن يـدفع عنه ما ينافيه من أسباب الهلاك فـافتقر لأجل جلب الغـذاء إلى جنـدين بـاطن وهو الشـهوة وظـاهر وهو اليد والأعضاء الجالبة للغذاء فخلق في القلب من الشهوات ما احتاج إليه وخلقت الأعضاء التي هي آلات الشـهوات فـافتقر لأجل دفع المهلكـات إلى جنـدين بـاطن وهو الغضب الـذي به يـدفع المهلكـات وينتقم من الأعـداء وظـاهر وهو اليد والرجل للـذين بهما يعمل بمقتضى الغضب وكل ذلك بـأمور خارجة فـالجوارح من البـدن كالأسـلحة وغيرها ثم المحتـاج إلى الغذاء ما لم يعرف الغذاء لم تنفعه شهوة الغذاء وإلفه فـافتقر للمعرفة إلى جنـدين بـاطن وهو إدراك السمع والبصر والشم واللمس والذوق وظاهر وهو العين والأذن والأنف وغيرها وتفصيل وجه الحاجة إليها ووجه الحكمة فيها يطـول ولا تحويه مجلـدات كثـيرة وقد أشـرنا إلى طرف يسير منها في كتاب الشكر فليقتنع به فجملة جنود القلب تحصرها ثلاثة أصناف صنف باعث ومستحث إما إلى جلب النافع الموافق كالشهوة وإما إلى دفع الضار المنـافي كالغضب وقد يعبر عن هذا الباعث بالإرادة والثاني هو المحرك للأعضـاء إلى تحصـيل هـذه المقاصد ويعـبر عن هـذا الثـاني بالقـدرة وهي جنـود مبثوثة في سـائر الأعضـاء لا سـيما العضلات منها والأوتار والثالث هو المدرك المتعرف للأشياء كالجواسـيس وهي قـوة البصر والسـمع والشم والـذوق واللمس وهي مبثوثة في أعضـاء معينة ويعـبر عن هـذا بـالعلم والإدراك ومع كل واحد من هـذه الجنـود الباطنة جنـود ظـاهرة وهي الأعضـاء المركبة من الشحم واللحم والعصب والدم والعظم التي أعدت آلات لهذه الجنود فإن قوة البطش إنما هي بالأصـابع وقـوة البصر إنما هي بـالعين وكـذا سـائر القـوى ولسـنا نتكلم في الجنـود الظاهرة أعني الأعضاء فإنها من عالم الملك والشـهادة وإنما نتكلم الآن فيما أيـدت به من جنود لم تروها وهذا الصنف الثالث وهو المدرك من هـذه الجملة ينقسم إلى ما قد أسـكن المنازل الظاهرة وهي الحواس الخمس أعني السمع والبصر والشم والذوق واللمس وإلى ما أسـكن منـازل باطنة وهي تجـاويف الـدماغ وهي أيضا خمسة فـإن الإنسـان بعد رؤية الشيء يغمض عينه فيدرك صورته في نفسه وهو الخيال ثم تبقى تلك الصورة معه بسـبب شـيء يحفظه وهو الجند الحافظ ثم يتفكر فيما حفظه فـيركب بعض ذلك إلى البعض ثم يتـذكر ما قد نسـيه ويعـود إليه ثم يجمع جملة معـاني المحسوسـات في خياله بـالحس المشترك بين المحسوسات ففي الباطن حس مشـترك وتخيل وتفكر وتـذكر وحفظ ولـولا خلق الله قوة الحفظ والفكر والذكر والتخيل لكـان الـدماغ يخلو عنه كما تخلو اليد والرجل عنه فتلك القوى أيضا جنود باطنة وأماكنها أيضا باطنة فهذه هي أقسام جنود القلب وشرح ذلك بحيث يدركه فهم الضعفاء بضرب الأمثلة يطول ومقصود مثل هذا الكتـاب أن ينتفع به الأقوياء والفحـول من العلمـاء ولكنا نجتهد في تفهيم الضـعفاء بضـرب الأمثلة ليقـرب ذلك من أفهامهم.

بيان أمثلة القلب مع جنوده الباطنة

اعلم أن جنـدي الغضب والشـهوة قد ينقـادان للقلب انقيـادا تاما فيعينه ذلك على طريقه الذي يسلكه وتحسن مرافقتهما في السفر الذي هو بصدده وقد يستعصيان عليه استعصاء بغي وتمرد حتى يملكاه ويسـتبعداه وفيه هلاكه وانقطاعه عن سـفره الـذي به وصـوله إلى سـعادة الأبد وللقلب جند آخر وهو العلم والحكمة والتفكر كما سـيأتي شـرحه وحقه أن يستعين بهذا الجند فإنه حزب الله تعالى على الجندين الآخـرين فإنهما قد يلتحقـان بحـزب الشيطان فـإن تـرك الاسـتعانة وسـلط على نفسه جند الغضب والشـهوة هلك يقينا وخسر خسرانا مبينا وذلك حالة أكثر الخلق فإن عقولهم صارت مسـخرة لشـهواتهم في اسـتنباط الحيل لقضاء الشهوة وكـان ينبغي أن تكـون الشـهوة مسـخرة لعقـولهم فيما يفتقر العقل إليه ونحن نقرب ذلك إلى فهمك بثلاثة أمثلة المثال الأول أن نقول مثل نفس الإنسـان في بدنه أعـني بـالنفس اللطيفة المـذكورة كمثل ملك في مدينته ومملكته فـإن البـدن مملكة النفس وعالمها ومسـتقرها ومـدينتها وجوارحها وقواها بمنزلة الصـناع والعملة والقـوة العقلية المفكـرة له كالمشـير الناصح والـوزير العاقل والشـهوة له كالعبد السـوء يجلب

الطعام والميرة إلى المدينة والغضب والحمية له كصاحب الشرطة والعبد الجـالب للمـيرة كـذاب مكـار خـداع خـبيث يتمثل بصـورة الناصح وتحت نصـحه الشر الهائل والسم القاتل وديدنه وعادته منازعة الـــــوزير الناصح في آرائه وتدبيراته حـــــتى لا يخلو من منازعته ومعارضته ساعة كما أن الوالي في مملكته إذا كان مستغنيا في تدبيراته بوزيره مستشيرا له ومعرضا عن إشارة هذا العبد الخبيث مسـتدلا بإشـارته في أن الصـواب في نقيض رأيه أدبه صـاحب شـرطته وساسه لـوزيره وجعله مـؤتمرا له مسـلطا من جهته على هـذا العبد الخبيث وأتباعه وأنصاره حتى يكون العبد مسوسا لا سائسا ومأمورا مـدبرا لا أمـيرا مـدبرا استقام أمر بلـده وانتظم العـدل بسـببه فكـذا النفس مـتى اسـتعانت بالعقل وأدبت بحمية الغضب وسـلطتها على الشـهوة واسـتعانت بإحـداهما على الأخـرى تـارة بـأن تقلل مرتبة الغضب وغلوائه بمخالفة الشهوة واستدراجها وتارة بقمع الشهوة وقهرها بتسـليط الغضب والحمية عليها وتقـبيح مقتضـياتها اعتـدلت قواها وحسـنت أخلاقها ومن عـدل عن هـذه الطريقة كان كمن قـال الله تعـالى فيه أفـرأيت من اتخذ إلهه هـواه وأضـله الله على علم وقـال تعـالى واتبع هـواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث وقـال عز وجل فيمن نهى النفس عن الهوى وأما من خـاف مقـام ربه ونهى النفس عن الهـوى فـإن الجنة هي المأوى وسيأتي كيفية مجاهدة هذه الجنود وتسليط بعضـها على بعض في كتـاب رياضة النفس إن شـاء الله تعـالى المثـال الثـاني اعلم أن البـدن كالمدينة والعقل أعـني المدرك من الإنسان كملك مدبر لها وقواه المدركة من الحواس الظاهرة والباطنة كجنوده وأعوانه وأعضاؤه كرعيته والنفس الأمارة بالسوء التي هي الشـهوة والغضب كعـدو ينازعه في مملكته ويسـعى في إهلاك رعيته فصـار بدنه كربـاط وثغر ونفسه كمقيم فيه مرابط فإن هو جاهد عدوه وهزمه وقهره على ما يحب حمد أثره وإذا عـاد إلى الحضـرة كما قـال الله تعالى والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسـهم فضل الله المجاهـدين بـأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وإن ضـيع ثغـره وأهمل رعيته ذم أثـره فـانتقم منه عند الله تعالى فيقال له يوم القيامة يا راعي السوء أكلت اللحم وشربت اللبن ولم تأو الضـالة ولم تجبر الكسير اليوم أنتقم منك[1] كما ورد في الخبر وإلى هذه المجاهدة الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر[2] المثال الثالث مثل العقل مثل فارس متصـيد وشـهوته كفرسه وغضـبه ككلبه فمـتى كـان الفـارس حاذقا وفرسه مروضا وكلبه مؤدبا معلما كان جديرا بالنجاح ومتى كان هو في نفسه أخرق وكـان الفـرس جموحا والكلب عقـورا فلا فرسه ينبعث تحته منقـادا ولا كلبه يسترسل بإشـارته مطيعا فهو خليق بأن يعطب فضلا عن أن ينال ما طلب وإنما خرق الفـارس مثل جهل الإنسـان وقلة حكمته وكلال بصيرته وجماح الفرس مثل غلبة الشهوة خصوصا شهوة البطن والفرج وعقر الكلب مثل غلبة الغضب واستيلائه نسأل الله حسن التوفيق بلطفه.

بيان خاصية قلب الإنسان

أعلم أن جملة ما ذكرنـاه قد أنعم الله به على سـائر الحيوانـات سـوى الآدمي إذ للحيـوان الشهوة والغضب والحواس الظاهرة والباطنة أيضا حتى إن الشاة ترى الـذئب بعينها فتعلم عداوته بقلبها فتهـرب منه فـذلك هو الإدراك البـاطن فلنـذكر ما يختص به قلب الإنسـان ولأجله عظم شـرفه واسـتأهل القـرب من الله تعـالى وهو راجع إلى علم وإرادة أما العلم فهو العلم بالأمور الدنيوية والأخروية والحقائق العقلية فـإن هـذه أمـور وراء المحسوسـات ولا يشاركه فيها الحيوانات بل العلوم الكلية الضرورية من خـواص العقل إذ يحكم الإنسـان بأن الشخص الواحد لا يتصور أن يكون في مكانين في حالة واحدة وهذا حكم منه على كل شخص ومعلوم أنه لم يدرك بالحس إلا بعض الأشخاص فحكمه على جميع الأشـخاص زائد على ما أدركه الحس وإذا فهمت هذا في العلم الظاهر الضروري فهو في سائر النظريـات أظهر وأما الإرادة فإنه إذا أدرك بالعقل عاقبة الأمر وطريق الصـــــلاح فيه انبعث من ذاته

---

[1] حديث يقال يوم القيامة يا راعي السوء أكلت اللحم وشربت اللبن ولم ترد الضالة الخبر لم أجد له أصلا

[2] حديث رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر أخرجه البيهقي في الزهد من حديث جابر وقال هذا إسناد في ضعف

شوق إلى جهة المصلحة وإلى تعاطي أسبابها والإرادة لها وذلك غـير إرادة الشـهوة وإرادة الحيوانـات بل يكـون على ضد الشـهوة فـإن الشـهوة تنفر عن الفصد والحجامة والعقل يريـدها ويطلبها ويبـذل المـال فيها والشـهوة تميل إلى لذائذ الأطعمة في حين المـرض والعاقل يجد في نفسه زاجرا عنها وليس ذلك زاجر الشهوة ولو خلق الله العقل المعـرف بعواقب الأمـور ولم يخلق هـذا البـاعث المحـرك للأعضـاء على مقتضى حكم العقل لكـان حكم العقل ضـائعا على التحقيق فـإذن قلب الإنسـان اختص بعلم وإرادة ينفك عنها سـائر الحيـوان بل ينفك عنها الصـبي في أول الفطـرة وإنما يحـدث ذلك فيه بعد البلـوغ وأما الشهوة والغضب والحواس الظاهرة والباطنة فإنها موجودة في حق الصبي ثم الصـبي في حصول هذه العلوم فيه له درجتان إحداهما أن يشـتمل قلبه على سـائر العلـوم الضـرورية الأولية كالعلم باستحالة المستحيلات وجواز الجائزات الظاهرة فتكون العلـوم النظرية فيها غير حاصلة إلا أنها صارت ممكنة قريبة الإمكان والحصول ويكون حاله بالإضافة إلى العلوم كحال الكاتب الذي لا يعرف من الكتابة إلا الـدواة والقلم والحـروف المفـردة دون المركبة فإنه قد قـارب الكتابة ولم يبلغها بعد الثانية أن تتحصل له العلـوم المكتسـبة بالتجـارب والفكر فتكون كالمخزونة عنده فإذا شاء رجع إليها وحاله حـال الحـاذق بالكتابة إذ يقـال له كـاتب وإن لم يكن مباشـرا للكتابة بقدرته عليها وهـذه هي غاية درجة الإنسـانية ولكن في هـذه الدرجة مـراتب لا تحصى بتفـاوت الخلق فيها بكـثرة المعلومـات وقلتها وبشـرف المعلومـات وخسـتها وبطريق تحصـيلها إذ تحصل لبعض القلـوب بإلهـام إلهي على سـبيل المبادأة والمكاشفة ولبعضهم بتعلم واكتساب وقد يكـون سـريع الحصـول وقد يكـون بطئ الحصول وفي هذا المقام تتباين منازل العلماء والحكماء والأنبياء والأولياء فدرجات الترقي فيه غـير محصـورة إذ معلومـات الله سـبحانه لا نهاية لها وأقصى الـرتب رتبة النـبي الـذي تنكشف له كل الحقـائق أو أكثرها من غـير اكتسـاب وتكلف بكشف إلهي في أسـرع وقت وبهذه السعادة يقرب العبد العبد من الله تعالى قربا بالمعنى والحقيقة والصفة لا بالمكـان والمسـافة ومـراقي هـذه الـدرجات هي منـازل السـائرين إلى الله تعـالى ولا حصر لتلك المنازل وإنما يعرف كل سـالك منزله الـذي بلغه في سـلوكه فيعرفه ويعـرف ما خلفه من المـنزل فأما ما بين يديه فلا يحيط بحقيقته علما لكن قد يصـدق به إيمانا بـالغيب كما أنا نؤمن بالنبوة والنبي ونصدق بوجوده ولكن لا يعـرف حقيقة النبـوة إلا النـبي وكما لا يعـرف الجنين حال الطفل ولا الطفل حـال المميز وما يفتح له من العلـوم الضـرورية ولا المميـز حـال العاقل وما اكتسـبه من العلـوم النظرية فكـذلك لا يعـرف العاقل ما افتتح الله على أوليائه وأنبيائه من مزايا لطفه ورحمته ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وهـذه الرحمة مبذولة بحكم الجـود والكـرم من الله سـبحانه وتعـالى غـير مضـنون بها على أحد ولكن إنما تظهر في القلوب المتعرضه لنفحات رحمة الله تعالى كما قـال صـلى الله عليه وسلم إن لـربكم في أيام دهـركم لنفحـات ألا فتعرضـوا لها[1] والتعرض لها بتطهير القلب وتزكيته من الخبث والكـدورة الحاصـلة من الأخلاق المذمومة كما سـيأتي بيانه وإلى هـذا الجود الإشارة بقوله صلى الله عليه وسـلم يـنزل الله كل ليلة إلى سـماء الـدنيافيقول هل من داع فأستجيب له وبقوله صلى الله عليه وسلم حكاية عن ربه عز وجل لقد طال شوق الأبـرار إلى لقـائي وأنـا إلى لقـائهم أشد شـوقا[2] وبقولـه تعـالى من تقـرب إلي شبرا تقـربت إليه ذراعا[3] كل ذلك إشارة إلى أن أنوار العلوم لم تحتجب عن القلوب لبخل ومنع من جهة المنعم تعـالى عن البخل والمنع علـوا كبـيرا ولكن حجبت لخبث وكـدورة وشـغل من جهة القلوب فإن القلوب كالأواني فما دامت ممتلئة بالماء لا يدخلها الهواء فـالقلوب المشـغولة بغير الله لا تدخلها المعرفة بجلال الله تعالى وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء[4] ومن هذه الجملة يتـبين أن خاصـية الإنسـان العلم والحكمة وأشـرف أنـواع العلم هو العلم بالله وصـفاته

---

[1] حديث إن لربكم في أيام دهركم لنفحات الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة وأبي سعيد وقد تقدم
[2] حديث يقول الله عز وجل لقد طال شوق الأبرار إلى لقائي الحديث لم أجد له أصلا إلا أن صاحب الفردوس خرجه من حديث أبي الدرداء ولم يذكر له ولده في مسند الفردوس إسنادا
[3] حديث يقول الله من تقرب إلي شبرا تقربت إليه ذراعا متفق عليه من حديث أبي هريرة

وأفعاله فبه كمال الإنسان وفي كماله سعادته وصلاحه لجوار حضرة الجلال والكمال فالبدن مركب للنفس والنفس محل للعلم والعلم هو مقصود الإنسان وخاصيته التي لأجله خلق وكما أن الفرس يشارك الحمار في قوة الحمل ويختص عنه بخاصية الكر والفر وحسن الهيئة فيكون الفرس مخلوقا لأجل تلك الخاصية فإن تعطلت منه نزل إلى حضيض رتبة الحمار وكذلك الإنسان يشارك الحمار والفرس في أمور ويفارقها في أمور هي خاصيته وتلك الخاصية من صفات الملائكة المقربين من رب العالمين والإنسان على رتبة بين البهائم والملائكة فإن الإنسان من حيث يتغذى وينسل فنبات ومن حيث يحس ويتحرك بالاختيار فحيوان ومن حيث صورته وقامته فكالصورة المنقوشة على الحائط وإنما خاصيته معرفة حقائق الأشياء من استعمل جميع أعضائه وقواه على وجه الاستعانة بها على العلم والعمل فقد تشبه بالملائكة فحقيق بأن يلحق بهم وجدير بأن يسمى ملكا وربانيا كما أخبر الله تعالى عن صواحبات يوسف عليه السلام بقوله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم ومن صرف همته إلى أتباع اللذات البدنية يأكل كما تأكل الأنعام فقد انحط إلى حضيض أفق البهائم فيصير إما غمرا كثور وإما شرها كخنزير وإما ضربا ككلب أو سنور أو حقودا كجمل أو متكبرا كنمر أو ذا روغان كثعلب أو يجمع ذلك كله كشيطان مريد وما من عضو من الأعضاء ولا حاسة من الحواس إلا ويمكن الاستعانة به على طريق الوصول إلى الله تعالى كما سيأتي بيان طرف منه في كتاب الشكر فمن استعمله فيه فقد فاز ومن عدل عنه فقد خسر وخاب وجملة السعادة في ذلك أن يجعل لقاء الله تعالى مقصده والدار الآخرة مستقره والدنيا منزله والبدن مركبه والأعضاء خدمه فيستقر هو أعني المدرك من الإنسان في القلب الذي هو وسط مملكته كالملك ويجري القوة الخيالية المودعة في مقدم الدماغ مجرى صاحب بريدة إذ تجتمع أخبار المحسوسات عنده ويجري القوة الحافظة التي مسكنها مؤخر الدماغ مجرى خازنه ويجري اللسان مجرى ترجمانه ويجري الأعضاء المتحركة مجرى كتابه ويجري الحواس الخمس مجرى جواسيسه فيوكل كل واحد منها بأخبار صقع من الأصقاع فيوكل العين بعالم الألوان والسمع بعالم الأصوات والشم بعالم الروائح وكذلك سائرها فإنها أصحاب أخبار يلتقطونها من هذه العوالم ويؤدونها إلى القوة الخيالية التي هي كصاحب البريد ويسلمها صاحب البريد إلى الخازن وهي الحافظة ويعرضها الخازن على الملك فيقتبس الملك منها ما يحتاج إليه في تدبير مملكته وإتمام سفره الذي هو بصدده وقمع عدوه الذي هو مبتلي به ودفع قواطع الطريق عليه فإذا فعل ذلك كان موفقا سعيدا شاكرا نعمة الله وإذا عطل هذه الجملة أو استعملها لكن في مراعاة أعدائه وهي الشهوة والغضب وسائر الحظوظ العاجلة أو في عمارة طريقه دون منزله إذ الدنيا طريقه التي عليها عبوره ووطنه ومستقره الآخرة كان مخذولا شقيا كافرا بنعمة الله تعالى مضيعا لجنود الله تعالى ناصرا لأعداء الله مخذلا لحزب الله فيستحق المقت والإبعاد في المنقلب والمعاد نعوذ بالله من ذلك وإلى المثال الذي ضربناه أشار كعب الأحبار حيث قال دخلت على عائشة رضي الله عنها فقلت الإنسان عيناه هاد وأذناه قمع ولسانه ترجمان ويداه جناحان ورجلاه بريد والقلب منه ملك[1] فإذا طاب الملك طابت جنوده فقالت هكذا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وقال علي رضي الله عنه في تمثيل القلوب إن لله تعالى في أرضه آنية وهي القلوب فأحبها إليه تعالى أرقها وأصفاها وأصلبها ثم فسره فقال أصلبها في الدين وأصفاها في اليقين وأرقها على الإخوان وهو إشارة إلى قوله تعالى أشداء على الكفار رحماء بينهم وقوله تعالى مثل نوره كمشكاة فيها مصباح قال أبي بن كعب رضي الله عنه معناه مثل نور المؤمن وقلبه وقوله تعالى أو كظلمات في بحر لجي مثل قلب المنافق وقال زيد بن أسلم في قوله تعالى في

---

[4] حديث لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم الحديث أخرجه أحمد من حديث أبي هريرة بنحوه وقد تقدم في الصيام

[1] حديث عائشة الإنسان عيناه هاد وأذناه قمع ولسانه ترجمان الحديث أخرجه أو نعيم في الطب النبوي والطبراني في مسند الشاميين والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة ونحوه وله ولأحمد من حديث أبي ذر وأما الأذن فقمع وأما العين فمقرة لما يوعي القلب ولا يصح منها شيء

لـوح محفـوظ وهو قلب المـؤمن وقـال سـهل مثل القلب والصـدر مثل العـرش والكرسي فهذه أمثلة القلب.

بيان مجامع أوصاف القلب وأمثلته

إعلم أن الإنسـان قد اصـطحب في خلقته وتركيبه أربع شـوائب فلـذلك اجتمع عليه أربعة أنـواع من الأوصـاف وهي الصـفات السـبعية والبهيمية والشـيطانية والربانية فهو من حيث سـلط عليه الغضب يتعـاطى أفعـال السـباع من العـداوة والبغضـاء والتهجم على النـاس بالضـرب والشـتم ومن حيث سـلطت عليه الشـهوة يتعـاطى أفعـال البهـائم من الشـره والحرص والشبق وغيره ومن حيث إنه في نفسه أمر رباني كما قال الله تعالى قل الـروح من أمر ربي فإنه يدعي لنفسه الربوبية ويحب الاسـتيلاء والاسـتعلاء والتخصص والاسـتبداد بالأمور كلها والتفرد بالرياسة والانسلال عن ربقة العبودية والتواضع ويشـتهي الاطلاع على العلوم كلها بل يدعي لنفسه العلم والمعرفة والإحاطة بحقائق الأمور ويفـرح إذا نسب إلى العلم ويحـزن إذا نسب إلى الجهل والإحاطة بجميع الحقـائق والاسـتيلاء بـالقهر على جميع الخلائق من أوصاف الربوبية وفي الإنسـان حـرص على ذلك ومن حيث يختص من البهـائم بالتمييز مع مشاركته لها في الغضب والشهوة حصلت فيه شيطانية فصار شريرا يسـتعمل التميـيز في اسـتنباط وجـوه الشر ويتوصل إلى الأغـراض بـالمكر والحيلة والخـداع ويظهر الشر في معرض الخير وهـذه أخلاق الشـياطين وكل إنسـان فيه شـوب من هـذه الأصـول الأربعة أعـني الربانية والشـيطانية والسـبعية والبهيمية وكل ذلك مجمـوع في القلب فكـأن المجموع في إهاب الإنسـان خـنزير وكلب وشـيطان وحكيم فـالخنزير هو الشـهوة فإنه لم يكن الخنزير مذموما للونه وشـكله وصـورته بل لجشـعه وكلبه وحرصه والكلب هو الغضب فإن السبع الضاري والكلب العقور ليس كلبا وسـبعا باعتبـار الصـورة واللـون والشـكل بل روح معنى السبعية الضراوة والعدوان والعقر وفي بـاطن الإنسـان ضـراوة السـبع وغضـبه وحرص الخنزير وشبقه فالخنزير يدعو بالشره إلى الفحشـاء والمنكر والسـبع بالغضب إلى الظلم والإيذاء والشيطان لا يزال يهيج شهوة الخنزير وغيظ السبع ويغـري أحـدهما بـالآخر ويحسن لهما ما هما مجبـولان عليه والحكيم الـذي هو مثـال العقل مـأمور بـأن يـدفع كيد الشـيطان ومكـره بـأن يكشف عن تلبيسه ببصـيرته النافـذة ونـوره المشـرق الواضح وأن يكسر شـره هـذا الخـنزير بتسـليط الكلب عليه إذ بالغضب يكسر سـورة الشـهوة ويـدفع ضراوة الكلب بتسـليط الخـنزير عليه ويجعل الكلب مقهـورا تحت سياسـته فـإن فعل ذلك وقدر عليه اعتدل الأمر وظهر العدل في مملكة البدن وجرى الكل على الصراط المستقيم وإن عجز عن قهرها وقهروه واستخدموه فلا يزال في استنباط الحيل وتدقيق الفكر ليشبع الخنزير ويرضى الكلب فيكون دائما في عبادة كلب وخـنزير وهـذا حـال أكـثر النـاس مهما كان أكثر همتهم البطن والفرج ومنافسة الأعداء والعجب منه أنه ينكر على عبـدة الأصـنام عبـادتهم للحجـارة ولو كشف الغطـاء عنه وكوشف بحقيقة حاله ومثل له حقيقة حاله كما يمثل للمكاشفين إما في النوم أو في اليقظة لرأى نفسه ماثلا بين يـدي خـنزير سـاجدا له مرة وراكعا أخرى ومنتظرا لإشارته وأمـره فمهما هـاج الخـنزير لطلب شـيء من شـهواته انبعث على الفور في خدمته وإحضار شهوته أو رأى نفسه ماثلا بين يدي كلب عقور عابـدا له مطيعا سـامعا لما يقتضـيه ويلتمسه مـدققا بـالفكر في حيل الوصـول إلى طاعته وهو بـذلك سـاع في مسـرة شـيطانه فإنه الـذي يهيج الخـنزير ويثـير الكلب ويبعثهما على استخدامه فهو من هذا الوجه يعبد الشـيطان بعبادتهما فلـيراقب كل عبد حركاته وسـكناته وسكوته ونطقه وقيامه وقعـوده ولينظر بعين البصـيرة فلا يـرى إن أنصف نفسه إلا سـاعيا طول النهار في عبادة هؤلاء وهذا غاية الظلم إذ جعل المالك مملوكا والرب مربوبا والسيد عبدا والقاهر مقهروا إذ العقل هو المستحق للسيادة والقهر والاسـتيلاء وقد سـخره لخدمة هؤلاء الثلاثة فلا جرم ينتشر إلى قلبه من طاعة هؤلاء الثلاثة صفات تتراكم عليه حتى يصير طابعا ورينا مهلكا للقلب ومميتا له أما طاعة خـنزير الشـهوة فتصـدر منها صـفة الوقاحة والخبث والتبـذير والتقتـير والريـاء والهتكة والمجانة والعبث والحـرص والجشع والملق والحسد والحقد والشـماتة وغيرها وأما طاعة كلب الغضب فتنتشر منها إلى القلب صـفة

التهـور والبذالة والبـذخ والصـلف والاستشـاطة والتكـبر والعجب والاسـتهزاء والاسـتخفاف وتحقـير الخلق وإرادة الشر وشـهوة الظلم وغيرها وأما طاعة الشـيطان بطاعة الشـهوة والغضب فيحصل منها صفة المكر والخداع والحيلة والدهاء والجراءة والتلـبيس والتضـريب والغش والخب والخنا وأمثالها ولو عكس الأمر وقهر الجميع تحت سياسة الصـــفة الربانية لاستقر في القلب من الصـفات الربانية العلم والحكمة واليقين والإحاطة بحقـائق الأشـياء ومعرفة الأمـور على ما هي عليه والاسـتيلاء على الكل بقـوة العلم والبصـيرة واسـتحقاق التقدم على الخلق لكمال العلم وجلاله ولاستغنى عن عبادة الشهوة والغضب ولانتشر إليه من ضبط خنزير الشهوة ورده إلى حد الاعتدال صفات شـريفة مثل العفة والقناعة والهـدو والزهد والـورع والتقـوى والانبسـاط وحسن الهيئة والحيـاء والظـرف والمسـاعدة وأمثالها ويحصل فيه من ضبط قوة الغضب وقهرها وردها إلى حد الواجب صـفة الشـجاعة والكـرم والنجدة وضبط النفس والصبر والحلم والاحتمال والعفو والثبات والنبل والشـهامة والوقـار وغيرها فـالقلب في حكم مـرآة قد اكتنفته هـذه الأمـور المـؤثرة فيه وهـذه الآثـار على التواصل واصلة إلى القلب أما الآثـار المحمـودة الـتي ذكرناها فإنها تزيد مـرآة القلب جلاء وإشراقا ونـورا وضـياء حـتى يتلألأ فيه جلية الحق وينكشف فيه حقيقة الأمر المطلـوب في الـدين وإلى مثل هـذا القلب الإشـارة بقوله صـلى الله عليه وسـلم إذا أراد الله بعبد خـيرا جعل لـه واعظا من قلبه[1] وبقولـه صلى الله عليه وسلم من كان لـه من قلبه واعظ كان عليه من الله حافظ[2] وهذا القلب هو الذي يستقر فيه الذكر قال الله تعالى ألا بذكر الله تطمئن القلوب وأما الآثـار المذمومة فإنها مثل دخـان مظلم يتصـاعد إلى مـرآة القلب ولا يـزال يـتراكم عليه مـرة بعد أخـرى إلى أن يسـود ويظلم ويصـير بالكلية محجوبا عن الله تعالى وهو الطبع وهو الرين قال الله تعالى كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون وقال عز وجل أن لو نشـاء أصـبناهم بـذنبوهم ونطبع على قلـوبهم فهم لا يسـمعون فربط عـدم السماع بالطبع بالذنوب كما ربط السماع بالتقوى فقال تعالى واتقوا الله واسـمعوا واتقـوا الله ويعلمكم الله ومهما تـراكمت الـذنوب طبع على القلـوب وعند ذلك يعمى القلب عن إدراك الحق وصلاح الدين ويستهين بأمر الآخرة ويستعظم أمر الـدنيا ويصـير مقصـور الهم عليها فإذا قرع سمعه أمر الآخـرة وما فيها من الأخطـار دخل من أذن وخـرج من أذن ولم يستقر في القلب ولم يحركه إلى التوبة والتدارك أولئك يئسوا من الآخرة كما يئس الكفـار من أصحاب القبور وهذا هو معنى اسوداد القلب بالذنوب كما نطق به القرآن والسنة قـال ميمون بن مهران إذا أذنب العبد ذنبا نكت في قلبه نكتة سوداء فـإذا هو نـزع وتـاب صـقل وإن عـاد زيد فيها حـتى يعلو قلبه فهو الـران وقد قـال النـبي صـلى الله عليه وسـلم قلب المؤمن أجـرد فيه سراج يزهر وقلب الكافر أسود منكوس[3] فطاعة الله سبحانه بمخالفة الشهوات مصقلة للقلب ومعاصيه مسـودات له فمن أقبل على المعاصي اسـود قلبه ومن أتبع السيئة الحسنة ومحا أثرها لم يظلم قلبه ولكن ينقص نوره كـالمرآة الـتي يتنفس فيها ثم تمسح ويتنفس ثم تتمسح فإنها لا تخلو عن كـدورة وقد قـال صـلى الله عليه وسـلم القلوب أربعة قلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المـؤمن وقلب أسـود منكـوس فـذلك قلب الكافر وقلب أغلف مربوط على غلافه فذلك قلب المنـافق وقلب مصـفح فيه إيمـان ونفاق[4] فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والصـديد فـأي المـادتين غلبت عليه حكم له بها وفي رواية ذهبت به قـال الله تعالى إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تـذكروا فـإذا هم مبصـرون فـأخبر أن جلاء القلب وإبصاره يحصل بالذكر وأنه لا يتمكن منه إلا الـذين اتقـوا فـالتقوى بـاب الـذكر والذكر باب الكشف والكشف باب الفوز الأكبر وهو الفوز بلقاء الله تعالى.

---

[1] حديث إذا أراد الله بعبده خيرا جعل له واعظا من قلبه أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أم سلمة وإسناده جيد

[2] حديث من كان له من قلبه واعظ كان عليه من الله حافظ لم أجد له أصلا

[3] حديث قلب المؤمن أجرد فيه سراج يزهر الحديث أخرجه أحمد والطبراني في الصغير من حديث أبي سعيد وهو بعض الحديث الذي يليه

[4] حديث القلوب أربعة قلب أجرد فيه سراج يزهر الحديث أخرجه أحمد والطبراني في الصغير من حديث أبي سعيد الخدري وقد تقدم

بيان مثل القلب بالإضافة إلى العلوم خاصة

اعلم أن محل العلم هو القلب أعـــني اللطيفة المـــدبرة لجميع الجـــوارح وهي المطاعة المخدومة من جميع الأعضاء وهي بالإضافة إلى حقائق المعلومـات كـالمرآة بالإضـافة إلى صور المتلونات فكما أن للمتلون صورة ومثـال تلك الصـورة ينطبع في المـرآة ويحصل بها كذلك لكل معلوم حقيقة ولتلك الحقيقة صورة تنطبع في مـرآة القلب وتتضح فيها وكما أن المرآة غير وصور الأشخاص غـير وحصـول مثالها في المـرآة غـير فهي ثلاثة أمـور فكـذلك ههنا ثلاثة أمور القلب وحقـائق الأشـياء وحصـول نفس الحقـائق في القلب وحضـورها فيه فالعالم عبارة عن القلب الذي فيه يحل مثال حقائق الأشـياء والمعلـوم عبـارة عن حقـائق الأشياء والعلم عبارة عن حصـول المثـال في المـرآة وكما أن القبض مثلا يسـتدعي قابضا كاليد ومقبوضا كالسيف ووصولا بين السيف واليد بحصـول السـيف في اليد ويسـمى قبضا فكذلك وصول مثال المعلوم إلى القلب يسـمى علما وقد كـانت الحقيقة موجـودة والقلب موجـــودا ولم يكن العلم حاصلا لأن العلم عبـــارة عن وصـــول الحقيقة إلى القلب كما أن السيف موجود واليد موجودة ولم يكن اسم القبض والأخذ حاصلا لعـدم وقـوع السـيف في اليد نعم القبض عبـارة عن حصـول السـيف بعينه في اليد والمعلـوم بعينه لا يحصل في القلب فمن علم النـــار لم تحصل عين النـــار في قلبه ولكن الحاصل حـــدها وحقيقتها المطابقة لصورتها فتمثيله بالمرآة أولى لأن عين الإنسان لا تحصل في المرآة وإنما يحصل مثال مطابق له وكذلك حصول مثال مطابق لحقيقة المعلوم في القلب يسـمى علما وكما أن المرآة لا تنكشف فيها الصورة لخمسة أمور أحدها نقصان صـورتها كجـوهر الحديد قبل أن يدور ويشكل ويصقل والثاني لخبثه وصدئه وكدورته وإن كان تام الشكل والثـالث لكونه معدولا به عن جهة الصورة إلى غيرها كما إذا كـانت الصـورة وراء المـرآة والرابع لحجـاب مرسل بين المـرآة والصـورة والخـامس للجهل بالجهة الـتي فيها الصـورة المطلوبة حـتى يتعذر بسببه أن يحاذي بها شطر الصـورة وجهتها فكـذلك القلب مـرآة مسـتعدة لأن ينجلي فيها حقيقة الحق في الأمـور كلها وإنما خلت القلـوب عن العلـوم الـتي خلت عنها لهـذه الأسباب الخمسة أولها نقصان في ذاته كقلب الصبي فإنه لا ينجلي له المعلومات لنقصـانه والثاني لكدورة المعاصي والخبث الذي يـتراكم على وجه القلب من كـثرة الشـهوات فـإن ذلك يمنع صفاء القلب وجلاءه فيمتنع ظهور الحق فيه لظلمته وتراكمه وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم من قـارف ذنبا فارقـه عقـل لا يعـود إليـه أبـدا[1] أي حصـل في قلبـه كـدورة لا يـزول أثرها إذ غايته أن يتبعه بحسـنة يمحـوه بها فلو جـاء بالحسـنة ولم تتقـدم السيئة لازداد لا محالة إشراق القلب فلما تقدمت السيئة سقطت فائدة الحسـنة لكن عـاد القلب بها إلى ما كان قبل السيئة ولم يزدد بها نورا فهذا خسران مبين ونقصـان لا حيلة له فليست المرآة التي تتدنس ثم تمسح بالمصقلة كـالتي تمسح بالمصـقلة لزيـادة جلائها من غير دنس سابق فالإقبال على طاعة الله والإعـراض عن مقتضى الشـهوات هو الـذي يجلو القلب ويصفيه ولذلك قال الله تعالى والذين جاهدوا فينا لنهـدينهم سـبلنا وقـال صـلى الله عليه وسلم من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم[2] الثالث أن يكون معدولا به عن جهة الحقيقة المطلوبة فإن قلب المطيع الصالح وإن كان صـافيا فإنه ليس يتضح فيه جلية الحق لأنه ليس يطلب الحق وليس محاذيا بمرآته شطر المطلوب بل ربما يكون متسوعب الهم بتفصيل الطاعات البدنية أو بتهيئة أسـباب المعيشة ولا يصـرف فكـره إلى التأمل في حضـــرة الربوبية والحقـــائق الخفية الإلهية فلا ينكشف له إلا ما هو متفكر فيه من دقـــائق آفات الأعمال وخفايا عيوب النفس إن كان متفكرا فيها أو مصالح المعيشة إن كان متفكرا فيها وإذا كـان تقييد الهم بالأعمـال وتفصـيل الطاعـات مانعا عن انكشـاف جلية الحق فما ظنك فيمن صرف الهم إلى الشـهوات الدنيوية ولـذاتها وعلائقها فكيف لا يمنع عن الكشف الحقيقي الرابع الحجـــاب فـــإن المطيع القـــاهر لشـــهواته المتجـــرد الفكر في حقيقة من

---

[1] حديث من قارف ذنبا فراقه عقل لا يعود إليه أبدا لم أر له أصلا

[2] حديث من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم رواه أبو نعيم في الحلية من حديث أنس وقد تقدم في العلم

الحقائق قد لا ينكشف له ذلك لكونه محجوبا عنه باعتقاد سبق إليه منذ الصبا على سبيل التقليد والقبول بحسن الظن فإن ذلك يحول بينه وبين حقيقة الحق ويمنع من أن ينكشف في قلبه خلاف ما تلقفه من ظاهر التقليد وهذا أيضا حجاب عظيم به حجب أكثر المتكلمين والمتعصبين للمذاهب بل أكثر الصالحين المتفكرين في ملكوت السموات والأرض لأنهم محجوبون باعتقادات تقليدية جمدت في نفوسهم ورسخت في قلوبهم وصارت حجابا بينهم وبين درك الحقائق الخامس الجهل بالجهة التي يقع منها العثور على المطلوب فإن طالب العلم ليس يمكنه أن يحصل العلم بالمجهول إلا بالتذكر للعلوم التي تناسب مطلوبه حتى إذا تذكرها ورتبها في نفسه ترتيبا مخصوصا يعرفه العلماء بطرق الاعتبار فعند ذلك يكون قد عثر على جهة المطلوب فتنجلي حقيقة المطلوب لقلبه فإن العلوم المطلوبة التي ليست فطرية لا تقتنص إلا بشبكة العلوم الحاصلة بل كل علم لا يحصل إلا عن علمين سابقين يأتلفا ويزدوجان على وجه مخصوص فيحصل من ازدواجهما علم ثالث على مثال ما يحصل النتاج من ازدواج الفحل والأنثى ثم كما أن من أراد أن يستنتج رمكة لم يمكنه ذلك من حمار وبعير وإنسان بل من أصل مخصوص من الخيل الذكر والأنثى وذلك إذا وقع بينهما ازدواج مخصوص فكذلك كل علم فله أصلان مخصوصان وبينهما طريق في الازدواج يحصل من ازدواجهما العلم المستفاد المطلوب فالجهل بتلك الأصول وبكيفية الازدواج هو المانع من العلم ومثاله ما ذكرناه من الجهل بالجهة التي الصورة فيها بل مثاله أن يريد الإنسان أن يرى قفاه مثلا بالمرآة فإنه إذا رفع المرآة بإزاء وجهه لم يكن قد حاذى بها شطر القفا فلا يظهر فيها القفا وإن رفعها وراء القفا وحاذاه كان قد عدل بالمرآة عن عينه فلا يرى المرآة ولا صورة القفا فيها فيحتاج إلى مرآة أخرى ينصبها وراء القفا وهذه في مقابلتها بحيث يبصرها ويراعي مناسبة بين وضع المرآتين حتى تنطبع صورة القفا في المرآة المحاذية للقفا ثم تنطبع صورة هذه المرآة في المرآة الأخرى التي في مقابلة العين ثم تدرك العين صورة القفا فكذلك في اقتناص العلوم طرق عجيبة فيها ازورارات وتحريفات أعجب ما ذكرناه في المرآة يعز على بسيط الأرض من يهتدي إلى كيفية الحيلة في تلك الأزورارات فهذه هي الأسباب المانعة للقلوب من معرفة حقائق الأمور وإلا فكل قلب فهو بالفطرة صالح لمعرفة الحقائق لأنه أمر رباني شريف فارق سائر جواهر العالم بهذه الخاصية والشرف وإليه الإشارة بقوله عز وجل إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إشارة إلى أن له خاصية تميز بها عن السموات والأرض والجبال بها صار مطيقا لحمل أمانة الله تعالى وتلك الأمانة هي المعرفة والتوحيد وقلب كل آدمي مستعد لحمل الأمانة ومطيق لها في الأصل ولكن يثبطه عن النهوض بأعبائها والوصول إلى تحقيقها الأسباب التي ذكرناها ولذلك قال صلى الله عليه وسلم كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه[1] وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء[2] إشارة إلى بعض هذه الأسباب التي هي الحجاب بين القلوب وبين الملكوك وإليه الإشارة بما روى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم يا رسول الله أين الله في الأرض أو في السماء قال في قلوب عباده المؤمنين[3] وفي الخبر قال الله تعالى لم يسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن اللين الوادع[4] وفي الخبر أنه قيل يا رسول الله من خير الناس فقال كل مؤمن مخموم القلب فقيل وما مخموم القلب فقال هو التقي النقي الذي لا غش فيه ولا بغي ولا غدر ولا غل ولا حسد[5] ولذلك قال عمر رضي الله عنه رأى قلبي ربي إذ كان قد رفع الحجاب بالتقوى ومن ارتفع الحجاب بينه وبين الله

---

[1] حديث كل مولود يولد على الفطرة الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة

[2] حديث لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم الحديث تقدم

[3] حديث ابن عمر أين الله قال في قلوب عباده المؤمنين لم أجده بهذا اللفظ وللطبراني من حديث أبي عتبة الخولاني يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال إن لله آنية من أهل الأرض وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين الحديث فيه بقية بن الوليد وهو مدلس لكنه صرح فيه بالتحديث

[4] حديث قال الله ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن اللين الوادع لم أر له أصلا وفي حديث أبي عتبة قبله عند الطبراني بعد قوله وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين وأحبها إليه ألينها وأرقها

تجلى صورة الملك والملكوت في قلبه فيرى جنة عرض بعضها السموات والأرض أما جملتها فأكثر سعة من السموات والأرض لأن السموات والأرض عبارة عن عالم الملك والشهادة وهو وإن كان واسع الأطراف متباعد الأكناف فهو متناه على الجملة وأما عالم الملكوت وهي الأسرار الغائبة عن مشاهدة الأبصار المخصوصة بإدراك البصائر فلا نهاية له نعم الذي يلوح للقلب منه مقدار متناه ولكنه في نفسه وبالإضافة إلى علم الله لا نهاية له وجملة عالم الملك والملكوت إذا أخذت دفعة واحدة تسمى الحضرة الربوبية لأن الحضرة الربوبية محيطة بكل الموجودات إذ ليس في الوجود شيء سوى الله تعالى وأفعاله ومملكته وعبيده من أفعاله فما يتجلى من ذلك للقلب هي الجنة بعينها عند قوم وهو سبب استحقاق الجنة عند أهل الحق ويكون سعة ملكه في الجنة بحسب سعة معرفته وبمقدار ما تجلى له من الله وصفاته وأفعاله وإنما مراد الطاعات وأعمال الجوارح كلها تصفية القلب وتزكيته وجلاؤه قد أفلح من زكاها ومراد تزكيته حصول أنوار الإيمان فيه أعني إشراق نور المعرفة وهو المراد بقوله تعالى فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه نعم هذا التجلي وهذا الإيمان له ثلاث مراتب المرتبة الأولى إيمان العوام وهو إيمان التقليد المحض والثانية إيمان المتكلمين وهو ممزوج بنوع استدلال ودرجته قريبة من درجة إيمان العوام والثالثة إيمان العارفين وهو المشاهد بنور اليقين ونبين لك هذه المراتب بمثال وهو أن تصديقك بكون زيد مثلا في الدار له ثلاث درجات الأولى أن يخبرك من جربته بالصدق ولم تعرفه بالكذب ولا اتهمته في القول فإن قلبك يسكن إليه ويطمئن بخبره بمجرد السماع وهذا الإيمان بمجرد التقليد وهو مثل إيمان العوام فإنهم لما بلغوا سن التمييز سمعوا من آبائهم وأمهاتهم وجود الله تعالى وعلمه وإرادته وقدرته وسائر صفاته وبعثة الرسل وصدقهم وما جاءوا به وكما سمعوا به قبلوه وثبتوا عليه واطمأنوا إليه ولم يخطر ببالهم خلاف ما قالوه لهم لحسن ظنهم بآبائهم وأمهاتهم ومعلميهم وهذا الإيمان سبب النجاة في الآخرة وأهله من أوائل رتب أصحاب اليمين وليسوا من المقربين لأنه ليس فيه كشف وبصيرة وانشراح صدر بنور اليقين إذ الخطأ ممكن فيما سمع من الآحاد بل من الأعداد فيما يتعلق بالاعتقادات فقلوب اليهود والنصارى أيضا مطمئنة بما يسمعونه من آبائهم وأمهاتهم إلا أنهم اعتقدوا ما اعتقدوا خطأ لأنهم ألقى إليهم الخطأ والمسلمون اعتقدوا الحق لا لإطلاعهم عليه ولكن ألقى إليهم كلمة الحق الرتبة الثانية أن تسمع كلام زيد وصوته من داخل الدار ولكن من وراء جدار فتستدل به على كونه في الدار فيكون إيمانك وتصديقك ويقينك بكونه في الدار أقوى من تصديقك بمجرد السماع فإنك إذا قيل لك إنه في الدار ثم سمعت صوته ازددت به يقينا لأن الأصوات تدل على الشكل والصورة عند من يسمع الصوت في حال مشاهدة الصورة فيحكم قلبه بأن هذا صوت ذلك الشخص وهذا إيمان ممزوج بدليل والخطأ أيضا ممكن أن يتطرق إليه إذ الصوت قد يشبه الصوت وقد يمكن التكلف بطريق المحاكاة إلا أن ذلك قد لا يخطر ببال السامع لأنه ليس يجعل للتهمة موضعا ولا يقدر في هذا التلبيس والمحاكاة غرضا الرتبة الثالثة أن تدخل الدار فتنظر إليه بعينك وتشاهده وهذه هي المعرفة الحقيقية والمشاهدة اليقينية وهي تشبه معرفة المقربين والصديقين لأنهم يؤمنون عن مشاهدة فينطوي في إيمانهم إيمان العوام والمتكلمين ويتميزون بمزية بينة يستحيل معها إمكان الخطأ نعم وهم أيضا يتفاوتون بمقادير العلوم وبدرجات الكشف أما درجات الكشف فمثاله أن يبصر زيدا في الدار عن قرب وفي صحن الدار في وقت إشراق الشمس فيكمل له إدراكه والآخر يدركه في بيت أو من بعد أو في وقت عشية فيتمثل له في صورته ما يستيقن معه أنه هو ولكن لا يتمثل في نفسه الدقائق والخفايا من صورته ومثل هذا متصور في تفاوت المشاهدة للأمور الإلهية وأما مقادير العلوم فهو بأن يرى في الدار زيدا وعمرا وبكرا غير ذلك وآخر لا يرى إلا زيدا فمعرفة ذلك تزيد بكثرة المعلومات لا محالة فهذا حال القلب بالإضافة إلى العلوم والله تعالى أعلم بالصواب.

---

[5] حديث قيل من خير الناس قال كل مؤمن مخموم القلب الحديث أخرجه ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمر بإسناد صحيح

بيان حال القلب بالإضافة إلى أقسام العلوم العقلية والدينية والدنيوية والأخروية

أعلم أن القلب بغريزته مستعد لقبول حقائق المعلومات كما سبق ولكن العلوم الـتي تحل فيه تنقسم إلى عقلية وإلى شرعية والعقلية تنقسم إلى ضرورية ومكتسبة والمكتسبة إلى دنيوية وأخروية أما العقلية فنعني بها ما تقضي بها غريزة العقل ولا توجد بالتقليد والسماع وهي تنقسم إلى ضــرورية لا يــدري من أين حصــلت وكيف حصــلت كعلم الإنســان بــأن الشخص الواحد لا يكون في مكانين والشيء الواحد لا يكون حادثا قـديما موجـودا معـدوما معا فإن هذه علوم يجد الإنسـان نفسه منذ الصـبا مفطـورا عليها ولا يـدري مـتى حصل له هذا العلم ولا من أين حصل له أعـني أنه لا يـدري له سـببا قريبا وإلا فليس يخفى عليه أن الله هو الذي خلقه وهـداه وإلى علـوم مكتسـبة وهي المسـتفادة بـالتعلم والاسـتدلال وكلا القسمين قد يسمى عقلا قـال علي رضي الله عنه رأيت العقل عقلين فمطبـوع ومسـموع ولا ينفع مسـموع إذا لم يك مطبـوع كما لا تنفع الشـمس وضـوء العين ممنـوع والأول هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم لعلي ما خلق الله خلقا أكرم عليه من العقل[1] والثاني هو المــراد بقوله صــلى الله عليه وســلم لعلى رضي الله عنه إذا تقــرب النــاس إلى الله تعالى بـأنواع البر فتقـرب أنت بعقلـك[2] إذ لا يمكن التقـرب بـالغريزة الفطريـة ولا بـالعلوم الضــرورية بل بالمكتســبة ولكن مثل علي رضي الله عنه هو الــذي يقــدر على التقــرب باستعمال العقل في اقتناص العلوم التي بها ينـال القـرب من رب العـالمين فـالقلب جـار مجرى العين وغريزة العقل فيه جارية مجـرى قـوة البصر في العين وقـوة الإبصـار لطيفة تفقد في العمى وتوجد في البصر وإن كـــــــان قد غمض عينيه أو جن عليه الليل والعلم الحاصل منه في القلب جـار مجـرى قـوة إدراك البصر في العين ورؤيته لأعيـان الأشـياء وتأخر العلوم عن عين العقل في مدة الصبا إلى أوان التمييز أو البلوغ يضاهي تأخر الرؤية عن البصر إلى أوان إشراق الشـمس وفيضـان نورها على المبصـرات والقلم الـذي سـطر الله به العلوم على صفحات القلوب يجـرى مجـرى قـرص الشـمس وإنما لم يحصل العلم في قلب الصبي قبل التمييز لأن لوح قلبه لم يتهيأ بعد لقبول نفس العلم والقلم عبارة عن خلق من خلق الله تعالى جعله سببا لحصول نقش العلوم في قلوب البشر قال الله تعـالى الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم وقلم الله تعـالى لا يشـبه قلم خلقه كما لا يشـبه وصــفه وصف خلقه فليس قلمه من قصب ولا خشب كما أنه تعــالى ليس من جــوهر ولا عـرض فالموازنة بين البصـيرة الباطنة والبصر الظـاهر صـحيحة من هـذه الوجـوه إلا أنه لا مناســبة بينهما في الشــرف فــإن البصــيرة الباطنة هي عين النفس الــتي هي اللطيفة المدركة وهي كالفـارس والبـدن كـالفرس وعمى الفـارس أضر على الفـارس من عمى الفـرس بل لا نسـبة لأحد الضـررين إلى الآخر ولموازنة البصـيرة الباطنة للبصر الظـاهر سماه الله تعالى باسمه فقال ما كذب الفؤاد ما رأى سمي إدراك الفؤاد رؤية وكذلك قوله تعالى وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وما أراد به الرؤية الظاهرة فـإن ذلك غير مخصوص بإبراهيم عليه السلام حـتى يعـرض في معـرض الامتنـان ولـذلك سـمى ضد إدراكه عمى فقال تعالى فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور وقـال تعالى ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا فهذا بيـان العلم العقلي أما العلـوم الدينية فهي المـأخوذة بطريق التقليد من الأنبيـاء صـلوات الله عليهم وسـلامه وذلك يحصل بالتعلم لكتاب الله تعالى وسنة رسوله صـلى الله عليه وسـلم وفهم معانيهما بعد السـماع وبه كمـال صـفة القلب وسـلامته عن الأدواء والأمـراض فـالعلوم العقلية غـير كافية في سلامة القلب وإن كان محتاجا إليها كما أن العقل غير كـاف في اسـتدامة صـحة أسباب البدن بل يحتاج إلى معرفة خـواص الأدوية والعقـاقير بطريق التعلم من الأطبـاء إذ

---

[1] حديث ما خلق الله خلقا أكرم عليه من العقل أخرجه الترمذي الحكيم في نوادر الأصول بإسناد ضعيف وقد تقدم في العلم

[2] حديث إذا تقرب الناس إلى الله بأنواع البر فتقرب أنت بعقلك أخرجه أبو نعيم من حديث علي بإسناد ضعيف

مجرد العقل لا يهتدي إليه ولكن لا يمكن فهمه بعد سماعه إلا بالعقل فلا غنى بالعقل عن السماع ولا غنى بالسماع عن العقل فالداعي إلى محض التقليد مع عزل العقل بالكلية جاهل والمكتفي بمجرد العقل عن أنوار القرآن والسنة مغرور فإياك أن تكون من أحد الفريقين وكن جامعا بين الأصلين فإن العلوم العقلية كالأغذية والعلوم الشرعية كالأدوية والشخص المريض يستضر بالغذاء متى فاته الدواء فكذلك أمراض القلوب لا يمكن علاجها إلا بالأدوية المستفادة من الشريعة وهي وظائف العبادات والأعمال التي ركبها الأنبياء صلوات الله عليهم لإصلاح القلوب فمن لا يداوي قلبه المريض بمعالجات العبادة الشرعية واكتفى بالعلوم العقلية استضر بها كما يستضر المريض بالغذاء وظن من يظن أن العلوم العقلية مناقضة للعلوم الشرعية وأن الجمع بينهما غير ممكن هو ظن صادر عن عمى في عين البصيرة نعوذ بالله منه بل هذا القائل ربما يناقض عنده بعض العلوم الشرعية لبعض فيعجز عن الجمع بينهما فيظن أنه تناقض في الدين فيتحير به فينسل من الدين انسلال الشعرة من العجين وإنما ذلك لأن عجزه في نفسه خيل إليه نقضا في الدين وهيهات وإنما مثاله مثال الأعمى الذي دخل دار قوم فتعثر فيها بأواني الدار فقال لهم ما بال هذه الأواني تركت على الطريق لم لا ترد إلى مواضعها فقالوا له تلك الأواني في مواضعها وإنما أنت لست تهتدي للطريق لعماك فالعجب منك أنك لا تحيل عثرتك على عماك وإنما تحيلها على تقصير غيرك فهذه نسبة العلوم الدينية إلى العلوم العقلية والعلوم العقلية تنقسم إلى دنيوية وأخروية فالدنيوية كعلم الطب والحساب والهندسة والنجوم وسائر الحرف والصناعات والأخروية كعلم أحوال القلب وآفات الأعمال والعلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله كما فصلناه في كتاب العلم وهما علمان متنافيان أعني أن من صرف عنايته إلى أحدهما حتى تعمق فيه قصرت بصيرته عن الآخر على الأكثر ولذلك ضرب علي رضى الله عنه للدنيا والآخرة ثلاثة أمثلة فقال هما ككفتي الميزان وكالمشرق والمغرب وكالضرتين إذا أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى ولذلك ترى الأكياس في أمور الدنيا وفي علم الطب والحساب والهندسة والفلسفة جهالا في أمور الآخرة والأكياس في دقائق علوم الآخرة جهالا في أكثر علوم الدنيا لأن قوة العقل لا تفي بالأمرين جميعا في الغالب فيكون أحدهما مانعا من الكمال في الثاني ولذلك قال صلى الله عليه وسلم إن أكثر أهل الجنة البله[1] أي البله في أمور الدنيا وقال الحسن في بعض مواعظه لقد أدركنا أقواما لو رأيتموهم لقلتم مجانين ولو أدركوكم لقالوا شياطين فمهما سمعت أمرا غريبا من أمور الدين جحده أهل الكياسة في سائر العلوم فلا يغرنك جحودهم عن قبوله إذ من المحال أن يظفر سالك طريق المشرق بما يوجد في المغرب فكذلك يجري أمر الدنيا والآخرة ولذلك قال تعالى إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها الآية وقال تعالى يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون وقال عز وجل فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم فالجمع بين كمال الاستبصار في مصالح الدنيا والدين لا يكاد يتيسر إلا لمن رسخه الله لتدبير عباده في معاشهم ومعادهم وهم الأنبياء المؤيدون بروح القدس المستمدون من القوة الإلهية التي تتسع لجميع الأمور ولا تضيق عنها فأما قلوب سائر الخلق فإنها إذا استقلت بأمر الدنيا انصرفت عن الآخرة وقصرت عن الاستكمال فيها.

بيان الفرق بين الإلهام والتعلم والفرق بين طريق الصوفية في استكشاف الحق وطريق النظار

اعلم أن العلوم التي ليست ضرورية وإنما تحصل في القلب في بعض الأحوال تختلف الحال في حصولها فتارة تهجم على القلب كأنه ألقي فيه من حيث لا يدري وتارة تكتسب بطريق الاستدلال والتعلم فالذي يحصل لا بطريق الاكتساب وحيلة الدليل يسمى إلهاما والذي يحصل بالاستدلال يسمى اعتبارا واستبصارا ثم الواقع في القلب بغير حيلة وتعلم واجتهاد من العبد ينقسم إلى ما لا يدري العبد أنه كيف حصل له ومن أين حصل وإلى ما

[1] حديث أكثر أهل الجنة البله أخرجه البزار من حديث أنس وضعفه وصححه القرطبي في التذكرة وليس كذلك فقد قال ابن عدي أنه منكر

يطلع معه على السبب الذي منه استفاد ذلك العلم وهو مشاهدة الملك الملقى في القلب والأول يسمى إلهاما ونفثا في الروع والثاني يسـمى وحيا وتختص به الأنبيـاء والأول يختص به الأوليـاء والأصـفياء والـذي قبله وهو المكتسب بطريق الاسـتدلال يختص به العلمـاء وحقيقة القـول فيه أن القلب مسـتعد لأن تنجلي فيه حقيقة الحق في الأشـياء كلها وإنما حيل بينه وبينها بالأسـباب الخمسة الـتي سـبق ذكرها فهي كالحجـاب المسـدل الحائل بين مرآة القلب وبين اللوح المحفوظ الذي هو منقوش بجميع ما قضى الله به إلى يوم القيامة وتجلى حقائق العلوم من مرآة اللوح في مرآة القلب يضاهي انطباع صـورة من مـرآة في مرآهتقابلها والحجـاب بين المـرآتين تـارة يـزال باليد وأخـرى يـزول بهبـوب الريـاح تحركه وكذلك قد تهب رياح الألطاف وتنكشف الحجب عن أعين القلـوب فينجلي فيها بعض ما هو مسطور في اللوح المحفوظ ويكون ذلك تارة عند المنام فيعلم به ما يكون في المسـتقبل وتمام ارتفاع الحجـاب بـالموت فبه ينكشف الغطـاء وينكشف أيضا في اليقظة حـتى يرتفع الحجـاب بلطف خفي من الله تعـالى فيلمع في القلـوب من وراء سـتر الغيب شـيء من غرائب العلم تارة كالبرق الخاطف وأخرى على التوالي إلى حد ما ودوامه في غاية النـدور فلم يفارق الإلهـام الاكتسـاب في نفس العلم ولا في محله ولا في سـببه ولكن يفارقه من جهة زوال الحجاب فـإن ذلك ليس باختيـار العبد ولم يفـارق الـوحي الإلهـام في شـيء من ذلك بل في مشـــاهدة الملك المفيد للعلم فـــإن العلم إنما يحصل في قلوبنا بواســـطة الملائكة وإليه الإشارة بقوله تعالى وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء فـإذا عـرفت هـذا فـاعلم أن ميل أهل التصـوف إلى العلـوم الإلهامية دون التعليمية فلـذلك لم يحرصـوا على دراسة العلم وتحصـيل ما صـنفه المصنفون والبحث عن الأقاويل والأدلة المذكورة بل قالوا الطريق تقديم المجاهـدة ومحو الصـفات المذمومة وقطع العلائق كلها والإقبـال بكنه الهمة على الله تعـالى ومهما حصل ذلك كان الله هو المتولي لقلب عبده والمتكفل له بتنويره بـأنوار العلم وإذا تـولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة وأشـرق النـور في القلب وانشـرح الصـدر وانكشف له سر الملكوت وانقشع عن وجه القلب حجـاب الغـرة بلطف الرحمة وتلألأت فيه حقـائق الأمـور الإلهية فليس على العبد إلا الاستعداد بالتصفية المجردة وإحضار الهمة مع الإرادة الصـادقة والتعطش التام والترصد بدوام الانتظار لما يفتحه الله تعالى من الرحمة فالأنبياء والأوليـاء انكشف لهم الأمر وفـاض على صـدورهم النـور لا بـالتعلم والدراسة والكتابة للكتب بل بالزهد في الدنيا والتبري من علائقها وتفريغ القلب من شـواغلها والإقبـال بكنه الهمة على الله تعالى فمن كان لله كان الله له وزعموا أن الطريق في ذلك أولا بانقطاع علائق الـدنيا بالكلية وتفريغ القلب منها وبقطع الهمة عن الأهل والمـال والولد والـوطن وعن العلم والولاية والجاه بل يصير قلبه إلى حالة يستوي فيها وجود كل شيء وعدمه ثم يخلو بنفسه في زواية مع الاقتصار على الفرائض والرواتب ويجلس فارغ القلب مجموع الهم ولا يفـرق فكره بقراءة قرآن ولا بالتأمل في تفسير ولا بكتب حـديث ولا غـيره بل يجتهد أن لا يخطر بباله شيء سوى الله تعـالى فلا يـزال بعد جلوسه في الخلـوة قـائلا بلسـانه الله الله على الدوام مع حضور القلب حتى ينتهي إلى حالة يترك تحريك اللسان ويرى كأن الكلمة جارية على لسانه ثم يصبر عليه إلى أن يمحي أثره عن اللسان ويصادف قلبه مواظبا على الذكر ثم يواظب عليه إلى أن يمحي عن القلب صورة اللفظ وحروفه وهيئة الكلمة ويبقى معـنى الكلمة مجردا في قلبه حاضرا فيه كأنه لازم له لا يفارقه وله اختيار إلى أن ينتهي إلى هـذا الحد واختيار في استدامة هذه الحالة بدفع الوسواس وليس له اختيار في اسـتجلاب رحمة الله تعالى بل هو بما فعله صـار متعرضا لنفحـات رحمة الله فلا يبقى إلا الانتظـار لما يفتح الله من الرحمة كما فتحها على الأنبياء والأولياء بهذه الطريق وعند ذلك إذا صـدقت إرادته وصفت همته وحسنت مواظبته فلم تجاذبه شهواته ولم يشغله حديث النفس بعلائق الـدنيا تلمع لوامع الحق في قلبه ويكون في ابتدائه كـالبرق الخـاطف لا يثبت ثم يعـود وقد يتـأخر وإن عاد فقد يثبت وقد يكـون مختطفا وإن ثبت قد يطـول ثباته وقد لا يطـول وقد يتظـاهر أمثاله على التلاحق وقد يقتصر على فن واحد ومنازل أولياء الله تعـالى فيه لا تحصر كما لا يحصى تفاوت خلقهم وأخلاقهم وقد رجع هذا الطريق إلى تطهير محض من جانبك وتصفية

وجلاء ثم استعداد وانتظار فقط وأما النظار وذوو الاعتبار فلم ينكروا وجود هذا الطريق وإمكانه وإفضائه إلى هذا المقصد على الندور فإنه أكثر أحوال الأنبياء والأولياء ولكن استوعروا هذا الطريق واستبطؤا ثمرته واستبعدوا استجماع شروطه وزعموا أن محو العلائق إلى ذلك الحد كالمتعذر وإن حصل في حال فثباته أبعد منه إذ أدنى وسواس وخاطر يشوش القلب وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قلب المؤمن أشد تقلبا من القدر في غليانها[1] أخرجه أحمد والحاكم وقال عليه أفضل الصلاة والسلام قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن[2] وفي أثناء هذه المجاهدة قد يفسد المزاج ويختلط العقل ويمرض البدن وإذا لم تتقدم رياضة النفس وتهذيبها بحقائق العلوم نشبت بالقلب خيالات فاسدة تطمئن النفس إليها مدة طويلة إلى أن يزول وينقضي العمر قبل النجاح فيها فكم من صوفي سلك هذا الطريق ثم بقي في خيال واحد عشرين سنة ولو كان قد أتقن العلم من قبل لانفتح له وجه التباس ذلك الخيال في الحال فالاشتغال بطريق التعلم أوثق وأقرب إلى الغرض وزعموا أن ذلك يضاهي ما لو ترك الإنسان تعلم الفقه وزعم أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يتعلم ذلك وصار فقيها بالوحي والإلهام من غير تكرير وتعليق وأنا أيضا ربما انتهت بي الرياضة والمواظبة إليه ومن ظن ذلك فقد ظلم نفسه وضيع عمره بل هو كمن يترك طريق الكسب والحراثة رجاء العثور على كنز من الكنوز فإن ذلك ممكن ولكنه بعيد جدا فكذلك هذا وقالوا لا بد أولا من تحصيل ما حصله العلماء وفهم ما قالوه ثم لا بأس بعد ذلك بالانتظار لما لم ينكشف لسائر العلماء فعساه ينكشف بعد ذلك بالمجاهدة.

بيان الفرق بين المقامين بمثال محسوس

اعلم أن عجائب القلب خارجة عن مدركات الحواس لأن القلب أيضا خارج عن إدراك الحس وما لبس مدركا بالحواس تضعف الأفهام عن دركه إلا بمثال محسوس ونحن نقرب ذلك إلى الأفهام الضعيفة بمثالين أحدهما أنه لو فرضنا حوضا محفورا في الأرض احتمل أن يساق الماء من فوقه بأنهار تفتح فيه ويحتمل أن يحفر أسفل الحوض ويرفع منه التراب إلى أن يقرب من مستقر الماء الصافي فينفجر الماء من أسفل الحوض ويكون ذلك الماء أصفى وأدوم وقد يكون أغزر وأكثر فذلك القلب مثل الحوض والعلم مثل الماء وتكون الحواس الخمس مثال الأنهار وقد يمكن أن تساق العلوم إلى القلب بواسطة أنهار الحواس والاعتبار بالمشاهدات حتى يمتليء علما ويمكن أن تسد هذه الأنهار بالخلوة والعزلة وغض البصر ويعمد إلى عمق القلب بتطهيره ورفع طبقات الحجب عنه حتى تنفجر ينابيع العلم من داخله فإن قلت فكيف يتفجر العلم من ذات القلب وهو خال عنه فاعلم أن هذا من عجائب أسرارالقلب ولا يسمح بذكره في علم المعاملة بل القدر الذي يمكن ذكره أن حقائق الأشياء مسطورة في اللوح المحفوظ بل في قلوب الملائكة المقربين فكما أن المهندس يصور أبنية الدار في بياض ثم يخرجها إلى الوجود على وفق تلك النسخة فكذلك فاطر السموات والأرض كتب نسخة العالم من أوله إلى آخره في اللوح المحفوظ ثم أخرجه إلى الوجود على وفق تلك النسخة والعالم الذي خرج إلى الوجود بصورته تتأدى منه صورة أخرى إلى الحس والخيال فإن من ينظر إلى السماء والأرض ثم يغض بصره يرى صورة السماء والأرض في خياله حتى كأنه ينظر إليها ولو انعدمت السماء والأرض وبقي هو في نفسه لوجد صورة السماء والأرض في نفسه كأنه يشاهدهما وينظر إليهما ثم يتأدى من خياله أثر إلى القلب فيحصل فيه حقائق الأشياء التي دخلت في الحس والخيال والحاصل في القلب موافق للعالم الحاصل في الخيال والحاصل في الخيال موافق للعالم الموجود في نفسه خارجا من خيال الإنسان وقلبه والعالم الموجود موافق للنسخة الموجودة في اللوح المحفوظ فكأن للعالم أربع درجات في الوجود وجود في اللوح المحفوظ وهو سابق على وجوده الجسماني ويتبعه وجوده

---

[1] حديث قلب المؤمن أشد تقلبا من القدر في غليانها أخرجه أحمد والحاكم وصححه من حديث المقداد بن الأسود

[2] حديث قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن عمر أخرجه مسلم

الحقيقي ويتبع وجوده الحقيقي وجوده الخيالي أعني وجود صورته في الخيال ويتبع وجـوده الخيـالي وجـوده العقلي أعـني وجـود صـورته في القلب وبعض هـذه الوجـودات روحانية وبعضـها جسـمانية والروحانية بعضـها أشد روحانية من البعض وهــذا اللطف من الحكمة الإلهية إذ جعل حـدقتك على صـغر حجمها بحيث تنطبع صـورة العـالم والسـموات والأرض على اتساع أكنافها فيها ثم يسري من وجودها في الحس وجـود إلى الخيـال ثم منه وجـود في القلب فإنك أبدا لا تدرك إلا ما هو واصل إليك فلو لم يجعل للعـالم كله مثـالا في ذاتك لما كان لك خبر مما يباين ذاتك فسبحان من دبر هـذه العجـائب في القلـوب والأبصـار ثم أعمى عن دركها القلوب والأبصار حتى صارت قلوب أكـثر الخلق جاهلة بأنفسـها وبعجائبها ولنرجع إلى الغرض المقصود فنقول القلب قد يتصور أن يحصل فيه حقيقة العالم وصورته تارة من الحـواس وتـارة من اللـوح المحفـوظ كما أن العين يتصـور أن يحصل فيها صـورة الشـمس تـارة من النظر إليها وتـارة من النظر إلى المـاء الـذي يقابل الشـمس ويحكي صورتها فمهما ارتفع الحجاب بينه وبين اللوح المحفـوظ رأى الأشـياء فيه وتفجر إليه العلم منه فاستغنى عن الاقتباس من داخل الحـواس فيكـون ذلك كتفجر المـاء من عمق الأرض ومهما أقبل على الخيالات الحاصلة من المحسوسات كان ذلك حجابا له عن مطالعة اللوح المحفـوظ كما أن المـاء إذا اجتمع في الأنهـار منع ذلك من التفجر في الأرض وكما أن من نظر إلى الماء الذي يحكي صورة الشمس لا يكون ناظرا إلى نفس الشـمس فـإذن للقلب بابان باب مفتوح إلى عالم الملكوت وهو اللوح المحفوظ وعالم الملائكة وباب مفتـوح إلى الحواس الخمس المتمسـكة بعـالم الملك والشـهادة وعـالم الشـهادة والملك أيضا يحـاكي عالم الملكـوت نوعا من المحاكـاة فأما انفتـاح بـاب القلب إلى الاقتبـاس من الحـواس فلا يخفى عليك وأما انفتاح بابه الداخل إلى عالم الملكـوت ومطالعة اللـوح المحفـوظ فتعلمه علما يقينيا بالتأمل في عجـــائب الرؤيا واطلاع القلب في النــــوم على ما ســـيكون في المستقبل أو كـان في الماضي من غـير اقتبـاس من جهة الحـواس وإنما ينفتح ذلك البـاب لمن انفـرد بـذكر الله تعـالى وقـال صـلى الله عليه وسـلم سـبق المفـردون قيل ومن هم المفردون يا رسول الله قال المتنزهون بذكر الله تعالى وضع الذكر عنهم أوزارهم فـوردوا القيامة خفافا ثم قال في وصفهم إخبارا عن الله تعالى فقال ثم أقبل بوجهي عليهم أتــرى من واجهته بـوجهي يعلم أحد أي شـيء أريد أن أعطيه ثم قـال تعـالى أول ما أعطيهم أن أقـذف النـور في قلـوبهم فيخـبرون عـني كمـا أخـبر عنهم[1] ومـدخل هـذه الأخبـار هـو البـاب الباطن فإذا الفرق بين علوم الأوليـاء والأنبيـاء وبين علـوم العلمـاء والحكمـاء هـذا وهو أن علومهم تأتي من داخل القلب من البـاب المنفتح إلى عـالم الملكـوت وعلم الحكمة يتـأتى من أبواب الحـواس المفتوحة إلى عـالم الملك وعجـائب عـالم القلب وتـردده بين عـالمي الشـهادة والغيب لا يمكن أن يستقصى في علم المعاملة فهـذا مثـال يعلمك الفـرق بين مدخل العالمين المثال الثاني يعرفك الفرق بين العملين أعني عمل العلماء وعمل الأوليـاء فـإن العلمـاء يعملـون في اكتسـاب نفس العلـوم واجتلابها إلى القلب وأوليـاء الصـوفية يعملـون في جلاء القلـوب وتطهيرها وتصـفيتها وتصـقيلها فقط فقد حكى أن أهل الصـين وأهل الروم تباهوا بين يدي بعض الملوك بحسن صناعة النقش والصور فاستقر رأى الملك على أن يسـلم إليهم صـفة لينقش أهل الصـين منها جانبا وأهل الـروم جانبا ويـرخي بينهما حجاب يمنع اطلاع كل فريق على الآخر ففعل ذلك فجمع أهل الروم من الأصباغ الغريبة ما لا ينحصر ودخل أهل الصين من غير صبغ وأقبلوا يجلون جـانبهم ويصـقلونه فلما فـرغ أهل الروم ادعى أهل الصـين أنهم قد فرغـوا أيضا فعجب الملك من قـولهم وأنهم كيف فرغـوا من النقش من غير صبغ فقيل وكيف فرغتم من غير صبغ فقالوا ما عليكم ارفعوا الحجـاب فرفعوا وإذا بجانبهم يتلألأ منه عجائب الصنائع الرومية مع زيـادة إشـراق وبريق إذ كـان قد

[1] حديث سبق المفردون قيل ومن هم قال المستهترون بذكر الله الحديث أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة مقتصرا على أول الحديث وقال فيه وما المفردون قال الذاكرون الله كثيرا والذاكرات ورواه الحاكم بلفظ قال الذين يستهترون بذكر الله وقال صحيح على شرط الشيخين وزاد فيه البيهقي في الشعب يضع الذكر عنهم أثقالهم ويأتون يوم القيامة خفافا ورواه هكذا الطبراني في المعجم الكبير من حديث أبي الدرداء دون الزيادة التي ذكرها المصنف في آخره وكلاهما ضعيف

صار كالمرآة المجلوة لكثرة التصقيل فازداد حسن جانبهم بمزيد التصقيل فكذلك عناية الأولياء بتطهير القلب وجلائه وتزكيته وصفائه حتى يتلألأ فيه جلية الحق بنهاية الإشراق كفعل أهل الصين وعناية الحكماء والعلماء بالاكتساب ونقش العلوم وتحصيل نقشها في القلب كفعل أهل الروم فكيفما كان الأمر فقلب المؤمن لا يموت وعلمه عند الموت لا يمحى وصفاؤه لا يتكدر وإليه أشار الحسن رحمة الله عليه بقوله التراب لا يأكل محل الإيمان بل يكون وسيلة وقربة إلى الله تعالى وأما ما حصله من نفس العلم وما حصله من الصفاء والاستعداد لقبول نفس العلم فلا غنى به عنه ولا سعادة لأحد إلا بالعلم والمعرفة وبعض السعادات أشرف من بعض كما أنه لا غنى إلا بالمال فصاحب الدرهم غني وصاحب الخزائن المترعة غني وتفاوت درجات السعداء بحسب تفاوت المعرفة والإيمان كما تتفاوت درجات الأغنياء بحسب قلة المال وكثرته فالمعارف أنوار ولا يسعى المؤمنون إلى لقاء الله تعالى إلا بأنوارهم قال الله تعالى يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم وقد روي في الخبر إن بعضهم يعطي نورا مثل الجبل وبعضهم أصغر حتى يكون آخرهم رجلا يعطي نورا على إبهام قدميه فيضيء مرة وينطفيء أخرى فإذا أضاء قدم قدميه فمشى وإذا طفيء قام ومرورهم على الصراط على قدر نورهم فمنهم من يمر كطرف العين ومنهم من يمر كالبرق ومنهم من يمر كالسحاب ومنه من يمر كانقضاض الكواكب ومنهم من يمر كالفرس إذا اشتد في ميدانه والذي أعطى نورا على إبهام قدمه يحبوحبوا على وجهه ويديه ورجليه يجر يدا ويعلق أخرى ويصيب جوانبه النار فلا يزال كذلك حتى يخلص[1] حديث صحيح على شرط الشيخين الحديث فبهذا يظهر تفاوت الناس في الإيمان ولو وزن إيمان أبي بكر بإيمان العالمين سوى النبيين والمرسلين لرجح فهذا أيضا يضاهي قول القائل لو وزن نور الشمس بنور السرج كلها لرجح فإنما آحاد العوام نوره مثل نور السراج وبعضهم نوره كنور الشمع وإيمان الصديقين نوره كنور القمر والنجوم وإيمان الأنبياء كالشمس وكما ينكشف في نور الشمس صورة الآفاق مع اتساع أقطارها ولا ينكشف في نور السراج إلا زاوية ضيقه من البيت فكذلك تفاوت انشراح الصدر بالمعارف وانكشاف سعة الملكوت لقلوب العارفين ولذلك جاء في الخبر أنه يقال يوم القيامة أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان ونصف مثقال وربع مثقال وشعيرة وذرة[2] كل ذلك تنبيه على تفاوت درجات الإيمان وأن هذه المقادير من الإيمان لا تمنع دخول النار وفي مفهومه أن من إيمانه يزيد على مثقال فإنه لا يدخل النار إذ لو دخل لأمر بإخراجه أولا وأن من في قلبه مثقال ذرة لا يستحق الخلود في النار وإن دخلها وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم ليس شيء خيرا من ألف مثله إلا الإنسان المؤمن[3] حسن إشارة إلى تفضيل قلب العارف بالله تعالى الموقن فإنه خير من ألف قلب من العوام وقد قال تعالى وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين تفضيلا للمؤمنين على المسلمين والمراد به المؤمن العارف دون المقلد وقال عز وجل يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات فأراد ههنا بالذين آمنوا الذين صدقوا من غير علم وميزهم عن الذين أوتوا العلم ويدل ذلك على أن اسم المؤمن يقع على المقلد وإن لم يكن تصديقه عن بصيرة وكشف وفسر ابن عباس رضي الله عنهما قوله تعالى والذين أوتوا العلم درجات فقال يرفع الله العالم فوق المؤمن بسبعمائة درجة بين كل درجتين كما بين السماء والأرض وقال صلى الله عليه وسلم أكثر أهل الجنة البله وعليون لذوي الألباب[4] وقال صلى الله عليه وسلم فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي[5] وفي رواية كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب فبهذه الشواهد يتضح لك تفاوت درجات

---

[1] حديث إن بعضهم يعطي نورا مثل الجبل حتى يكون أصغرهم رجل يعطي نوره على إبهام قدمه الحديث أخرجه الطبراني والحاكم من حديث ابن مسعود قال الحاكم صحيح على شرط الشيخين

[2] حديث يقال يوم القيامة أخرجوا من النار من في قلبه ربع مثقال من إيمان الحديث متفق عليه من حديث أبي سعيد وليس فيه قوله ربع مثقال متفق عليه

[3] حديث ليس شيء خيرا من ألف مثله إلا الإنسان أو المؤمن أخرجه الطبراني من حديث سلمان بلفظ الإنسان ولأحمد من حديث ابن عمر لا نعلم شيئا خيرا من مائة مثله إلا الرجل المؤمن وإسنادهما حسن إسناده

[4] حديث أكثر أهل الجنة البله وعليون لذوي الألباب تقدم دون هذه لزيادة ولم أجد لهذه الزيادة أصلا

أهل الجنة بحسب تفاوت قلوبهم ومعارفهم ولهذا كان يوم القيامة يوم التغابن إذ المحروم من رحمة الله عظيم الغبن والخسران والمحروم يرى فوق درجته درجات عظيمة فيكون نظره إليها كنظر الغني الذي يملك عشرة دراهم إلى الغني الذي يملك الأرض من المشرق إلى المغرب وكل واحد منهما غني ولكن ما أعظم الفرق بينهما وما أعظم الغبن على من يخسر حظه من ذلك وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا.

بيان شواهد الشرع على صحة طريق أهل التصوف في اكتساب المعرفة لا من التعلم ولا من الطريق المعتاد

أعلم أن من انكشف له شيء ولو الشيء اليسير بطريق الإلهاموالوقوع في القلب من حيث لا يدري فقد صار عارفا بصحة الطريق ومن لم يدرك ذلك من نفسه قط فينبغي أن يؤمن به فإن درجة المعرفة فيه عزيزة جدا ويشهد لذلك شواهد الشرع والتجارب والحكايات أما الشواهد فقوله تعالى والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا فكل حكمة تظهر من القلب بالمواظبة على العبادة من غير تعلم فهو بطريق الكشف والإلهام وقال صلى الله عليه وسلم من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم ووفقه فيما يعمل حتى يستوجب الجنة ومن لم يعمل بما يعلم تاه فيما يعلم ولم يوفق فيما يعمل حتى يستوجب النار[1] وقال الله تعالى ومن يتق الله يجعل له مخرجا من الإشكالات والشبه ويرزقه من حيث لا يحتسب يعلمه علما من غير تعلم ويفطنه من غير تجربة وقال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا قيل نورا يفرق به بين الحق والباطل ويخرج به من الشبهات ولذلك كان صلى الله عليه وسلم يكثر في دعائه من سؤال النور فقال صلى الله عليه وسلم اللهم أعطني نورا وزدني نورا واجعل لي في قلبي نورا وفي قبري نورا وفي سمعي نورا وفي بصري نورا حتى قال في شعري وفي بشري وفي لحمي ودمي وعظامي[2] وسئل صلى الله عليه وسلم عن قول الله تعالى أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ما هذا الشرح فقال هو التوسعة إن النور إذا قذف به في القلب اتسع له الصدر وانشرح[3] وقال صلى الله عليه وسلم لابن عباس اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل[4] وقال علي رضي الله عنه ما عندنا شيء أسره النبي صلى الله عليه وسلم إلينا إلا أن يؤتي الله تعالى عبدا فهما في كتابه وليس هذا بالتعلم[5] وقيل في تفسير قوله تعالى يؤتي الحكمة من يشاء إنه الفهم في كتاب الله وقال تعالى ففهمناها سليمان خص ما انكشف باسم الفهم وكان أبو الدرداء يقول المؤمن من ينظر بنور الله من وراء ستر رقيق والله إنه للحق يقذفه الله في قلوبهم ويجريه على ألسنتهم وقال بعض السلف ظن المؤمن كهانة وقال صلى الله عليه وسلم أتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله تعالى[6] وإليه يشير قوله تعالى إن في ذلك لآيات للمتوسمين وقوله تعالى قد بينا الآيات لقوم يوقنون وروى الحسن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال العلم علمان فعلم باطن في القلب فذلك هو العلم النافع[7] وسئل بعض العلماء عن العلم الباطن ما هو فقال هو سر من أسرار الله تعالى يقذفه الله تعالى في قلوب أحبابه لم يطلع عليه ملكا ولا بشرا وقد قال صلى الله عليه وسلم إن من أمتي محدثين ومعلمين ومكلمين وإن عمر

---

[5] حديث فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي أخرجه الترمذي من حديث أبي أمامة وصححه وقد تقدم في العلم وكذلك الرواية الثانية أخرجه الترمذي

[1] حديث من عمل بما علم الحديث تقدم في العلم دون قوله ووفقه فيما يعمل فلم أرها

[2] حديث اللهم أعطني نورا وزدني نورا الحديث متفق عليه من حديث ابن عباس متفق عليه

[3] حديث سئل عن قوله تعالى أفمن شرح الله صدر للإسلام الحديث وفي المستدرك من حديث ابن مسعود وقد تقدم في العلم

[4] متفق عليه حديث اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل قاله لابن عباس متفق عليه من حديث ابن عباس دون قوله وعلمه التأويل فأخرجه بهذه الزيادة أحمد وابن حبان والحاكم وصححه وقد تقدم في العلم

[5] حديث علي ما عندنا شيء أسره إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أن يؤتي الله عبدا فهما في كتابه تقدم في آداب تلاوة القرآن

[6] حديث أتقوا فراسة المؤمن الحديث أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد وقد تقدم أخرجه الترمذي

[7] حديث العلم علمان الحديث تقدم في العلم

منهم[8] وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ولا محدث يعني الصديقين والمحدث هو الملهم والملهم هو الذي انكشف له في بـاطن قلبه من جهة الـداخل لا من جهة المحسوسـات الخارجة والقـرآن مصـرح بـأن التقـوى مفتـاح الهداية والكشف وذلك علم من غـير تعلم وقـال الله تعـالى وما خلق الله في السـموات والأرض لآيات لقوم يتقون خصصها بهم وقال تعالى هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين وكـان أبو يزيد وغيره يقول ليس العالم الذي يحفظ من كتاب فإذا نسي ما حفظه صار جاهلا إنما العـالم الـذي يأخذ علمه من ربه أي وقت شـاء بلا حفظ ولا درس وهـذا هو العلم الربـاني وإليه الإشـارة بقوله تعـالى وعلمنـاه من لـدنا علما مع أن كل علم من لدنه ولكن بعضـها بوسائط تعليم الخلق فلا يسمى ذلك علما لـدنيا بل اللـدني الـذي ينفتح في سر القلب من غير سبب مألوف من خارج فهذه شواهد النقل ولو جمع كل ما ورد فيه من الآيات والأخبار والآثار لخرج عن الحصر وأما مشاهدة ذلك بالتجـارب فـذلك أيضا خـارج عن الحصر وظهر ذلك على الصـحابة والتـابعين ومن بعـدهم وقـال أبو بكر الصـديق رضي الله عنه لعائشة رضي الله عنها عند موته إنما هما أخواك وأختاك وكانت زوجته حاملا فولدت بنتا فكـان قد عـرف قبل الـولادة أنها بنت وقـال عمر رضي الله عنه في أثنـاء خطبته يا سـارية الجبل الجبل إذ انكشف له أن العدو قد أشرف عليه فحذره لمعرفته ذلك ثم بلوغ صـوته إليه من جملة الكرامات العظيمة وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال دخلت على عثمـان رضي الله عنه وكنت قد لقيت امرأة في طـريقي فنظـرت إليها شـزرا وتـأملت محاسـنها فقـال عثمان رضي الله عنه لما دخلت يدخل علي أحـدكم وأثر الزنا ظـاهر على عينيه أما علمت أن زنا العينين النظر لتتوبن أولأعزرنك فقلت أوحي بعد النبي فقال لا ولكن بصيرة وبرهان وفراسة صادقة وعن أبي سـعيد الخـراز قـال دخلت المسـجد الحـرام فـرأيت فقـيرا عليه خرقتان فقلت في نفسي هـذا وأشـباهه كل على النـاس فنـاداني وقـال والله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه فاستغفرت الله في سري فناداني وقال وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ثم غاب عني ولم أره وقـال زكريا بن داود دخل أبو العبـاس بن مسـروق على أبي الفضل الهاشمي وهو عليل وكان ذا عيال ولم يعـرف له سـبب يعيش به قـال فلما قمت قلت في نفسي من أين يأكل هذا الرجل قال فصاح بي يا أبا العبـاس رد هـذه الهمة الدنية فـإن لله تعالى ألطافا خفية وقـال أحمد النقيب دخلت على الشـبلي فقـال مفتونا يا أحمد فقلت ما الخـبر قـال كنت جالسا فجـرى بخـاطري أنك بخيل فقلت ما أنا بخيل فعـاد مـني خـاطري وقال بل أنت بخيل فقلت ما فتح اليوم على بشيء إلا دفعته إلى أول فقير يلقاني قال فما استتم الخاطر حتى دخل على صاحب لمؤنس الخـادم ومعه خمسـون دينـارا فقـال اجعلها في مصالحك قال وقمت فأخذتها وخرجت وإذا بفقير مكفوف بين يـدي مـزين يحلق رأسه فتقدمت إليه وناولته الدنانير فقال أعطها المزين فقلت إن جملتها كـذا وكـذا قـال أو ليس قد قلنا لك إنك بخيل قال فناولتها المزين فقال المزين قد عقدنا لما جلس هذا الفقير بين أيدينا أن لا نأخذ عليه أجرا قـال فـرميت بها في دجلة وقلت ما أعـزك أحد إلا أذله الله عز وجل وقال حمزة بن عبد الله العلوي دخلت على أبي الخير النينـاني وأعتقـدت في نفسي أن أسلم عليه ولا آكل في داره طعاما فلما خـرجت من عنـده إذا به قد لحقـني وقد حمل طبقا فيه طعام وقال يا فتى كل فقد خرجت الساعة من اعتقادك وكان أبو الخـير النينـاني هذا مشهورا بالكرامات وقال إبراهيم الرقي قصدته مسلما عليه فحضـرت صـلاة المغـرب فلم يكد يقـرأ الفاتحة مسـتويا فقلت في نفسي ضـاعت سـفرتي فلما سـلم خـرجت إلى الطهارة فقصدني سبع فعدت إلى أبي الخير وقلت قصدني سبع فخرج وصاح به وقـال ألم أقل لك لا تتعرض لضيفاني فتنحى الأسد فتطهـرت فلما رجعت قـال لي اشـتغلتم بتقـويم الظاهر فخفتم الأسد وأشتغلنا بتقويم البواطن فخافنا الأسد وما حكى من تفرس المشـايخ وإخبـــارهم عن اعتقـــادات النـــاس وضـــمائرهم يخـــرج عن الحصر بل ما حكى عنهم من مشاهدة الخضر عليه السلام والسؤال منه ومن سماع صوت الهاتف ومن فنون الكرامـات

---

[8] أخرجه البخاري ومسلم حديث إن من أمتي محدثين ومكلمين وأن عمر منهم أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدثون فإن يك في أمتي أحد فإنه عمر ورواه مسلم من حديث عائشة

خـــارج عن الحصر والحكاية لا تنفع الجاحد ما لم يشـــاهد ذلك من نفسه ومن أنكر الأصل أنكر التفصيل والدليل القاطع الذي لا يقدر أحد على جحـده أمـران أحـدهما عجـائب الرؤيا الصادقة فإنه ينكشف بها الغيب وإذا جاز ذلك في النـوم فلا يسـتحيل أيضا في اليقظة فلم يفارق النوم اليقظة إلا في ركود الحواس وعدم اشتغالها بالمحسوسات فكم من مستيقظ غائص لا يسمع ولا يبصر لاشتغاله بنفسه والثاني إخبار رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم عن الغيب وأمور في المسـتقبل كما اشـتمل عليه القـرآن وإذا جـاز ذلك للنـبي صـلى الله عليه وسلم جاز لغيره إذ النبي عبـارة عن شـخص كوشف بحقـائق الأمـور وشـغل بإصـلاح الخلق فلا يسـتحيل أن يكـون في الوجـود شـخص مكاشف بالحقـائق ولا يشـتغل بإصـلاح الخلق وهذا لا يسمى نبيا بل يسمى وليا فمن آمن بالأنبياء وصدق بالرؤيا الصحيحة لزمه لا محالة أن يقر بـأن القلب له بابـان بـاب إلى خـارج وهو الحـواس وبـاب إلى الملكـوت من داخل القلب وهو باب الإلهام والنفث في الـروع والـوحي فـإذا أقربهما جميعا لم يمكنه أن يحصر العلوم في التعلم ومباشرة الأسـباب المألوفة بل يجـوز أن تكـون المجاهـدة سـبيل إليه فهذا ما ينبه على حقيقة ما ذكرنـاه من عجيب تـردد القلب بين عـالم الشـهادة وعـالم الملكوت وأما السبب في انكشاف الأمر في المنـام بالمثـال المحـوج إلى التعبـير وكـذلك تمثل الملائكة للأنبياء والأولياء بصور مختلفة فذلك أيضا من أسرار عجـائب القلب ولا يليق ذلك إلا بعلم المكاشـفة فلنقتصر على ما ذكرنــاه فإنه كـاف للاسـتحثاث على المجاهـدة وطلب الكشف منها فقد قـال بعض المكاشـفين ظهر لي الملك فسـألني أملي عليه شـيئا من ذكرى الخفي عن مشاهدتي من التوحيد وقـال ما نكتب لك عملا ونحن نحب أن نصـعد لك بعمل تتقـــرب به إلى الله عز وجل فقلت ألســتما تكتبــان الفــرائض قـــالا بلى قلت فيكفيكما ذلك وهـذه إشـارة إلى أن الكـرام الكـاتبين لا يطلعـون على أسـرار القلب وإنما يطلعون على الأعمال الظاهرة وقال بعض العـارفين سـألت بعض الأبـدال عن مسـألة من مشاهدة اليقين فالتفت إلى شماله فقال ما تقول رحمك الله ثم التفت إلى يمينه فقال ما تقول رحمك الله ثم أطرق إلى صدره وقال ما تقـول رحمك الله ثم أجـاب بـأغرب جـواب سمعته فسألته عن التفاته فقال لم يكن عندي في المسـألة جـواب عتيد فسـألت صـاحب الشـمال فقـال لا أدري فسـألت صـاحب اليمين وهو أعلم منه فقـال لا أدري فنظـرت إلى قلبي وسألته فحدثني بما أجبتك فـإذا هو أعلم منهما وكـأن هـذا هو معـنى قوله صـلى الله عليه وسلم أن في أمـتي محـدثين وإن عمر منهم وفي الأثر إن الله تعـالى يقـول أيما عبد اطلعت على قلبه فـــرأيت الغـــالب عليه التمسك بـــذكري تـــوليت سياســـته وكنت جليسه ومحادثه وأنيسه وقال أبو سليمان الـداراني رحمة الله عليه القلب بمنزلة القبة المضـروبة حولها أبواب مغلقة فأي باب فتح له عمل فيه فقد ظهر انفتـاح بـاب من أبـواب القلب إلى جهة الملكوت والملأ الأعلى وينفتح ذلك الباب بالمجاهـدة والـورع والإعـراض عن شـهوات الدنيا ولذلك كتب عمر رضي الله عنه إلى أمراء الأجناد احفظوا ما تسمعون من المطيعين فإنهم ينجلي لهم أمور صادقة وقال بعض العلماء يد الله على أفواه الحكماء لا ينطقون إلا بما هيأ الله لهم من الحق وقـال آخر لو شـئت لقلت إن الله تعـالى يطلع الخاشـعين على بعض سره.

بيان تسلط الشيطان على القلب بالوساوس ومعنى الوسوسة وسبب غلبتها

اعلم أن القلب كما ذكرنـاه مثل قبة مضـروبة لها أبـواب تنصب إليه الأحـوال من كل بـاب ومثاله أيضا مثال هدف تنصب إليه السهام من الجـوانب أو هو مثـال مـرآة منصـوبة تجتـاز عليها أصناف الصور المختلفة فتتراءى فيها صورة بعد صورة ولا تخلو عنها أو مثـال حـوض تنصب فيه مياه مختلفة من أنهار مفتوحة إليه وإنما مداخل هذه الآثار المتجـددة في القلب في كل حال أما من الظاهر فالحواس الخمس وأما من الباطن فالخيال والشهوة والغضب والأخلاق المركبة من مزاج الإنسان فإنه إذا أدرك بالحواس شـيئا حصل منه أثر في القلب وكذلك إذا هاجت الشهوة مثلا بسبب كثرة الأكل وبسـبب قـوة في المـزاج حصل منها في القلب أثر وإن كف عن الإحساس فالخيالات الحاصـلة في النفس تبقى وينتقل الخيـال من

شيء إلى شيء وبحسب انتقال الخيال ينتقل القلب من حال إلى حـال آخر والمقصـود أن القلب في التغـير والتـأثر دائما من هـذه الأسـباب وأخص الآثـار الحاصـلة في القلب هو الخواطر وأعني بالخواطر ما يحصل فيه من الآفكار والأذكـار وأعـني به إدراكاته علوما إما على سبيل التجدد وإما على سبيل التذكر فإنها تسمى خـواطر من حيث إنها تخطر بعد أن كان القلب غـافلا عنها والخـواطر هي المحركـات للإرادات فـإن النية والعـزم والإرادة إنما تكون بعد خطور المنوى بالبال لا محالة فمبدأ الأفعـال الخـواطر ثم الخـاطر يحـرك الرغبة والرغبة تحرك العزم والعزم يحرك النية والنية تحـرك الأعضـاء والخـواطر المحركة للرغبة تنقسم إلى ما يدعو إلى الشر أعني إلى ما يضر في العاقبة وإلى ما يدعو إلى الخير أعني إلى ما ينفع في الـدار الآخـرة فهما خـاطران مختلفـان فـافتقرا إلى اسـمين مختلفين فالخاطر المحمود يسمى إلهاما والخاطر المذموم أعني الداعي إلى الشر يسمى وسواسا ثم إنك تعلم أن هذه الخواطر حادثة ثم إن كل حـادث فلا بد له من محـدث ومهما اختلفت الحـوادث دل ذلك على اختلاف الأسـباب هـذا ما عـرف من سـنة الله تعـالى في تـرتيب المسببات على الأسباب فمهما استنارت حيطـان الـبيت بنـور النـار وأظلم سـقفه واسـود بالدخان علمت أن سبب السواد غير سبب الأستنارة وكـذلك لأنـوار القلب وظلمته سـببان مختلفان فسبب الخاطر الداعي إلى الخير يسمى ملكا وسـبب الخـاطر الـداعي إلى الشر يسمى شيطانا واللطف الـذي يتهيأ به القلب لقبـول إلهـام الخـير يسـمى توفيقا والـذي به يتهيأ لقبـول وسـواس الشـيطان يسـمى إغـواء وخـذلانا فـإن المعـاني المختلفة تفتقر إلى أسامي مختلفة والملك عبارة عن خلق خلقه الله تعـالى شـأنه إفاضة الخـير وإفـادة العلم وكشف الحق والوعد بالخير والأمر بالمعروف وقد خلقه وسـخره لـذلك والشـيطان عبـارة عن خلق شـأنه ضد ذلك وهو الوعد بالشر والأمر بالفحشـاء والتخويف عند الهم بـالخير بـالفقر فالوسوسة في مقابلة الإلهـام والشـيطان في مقابلة الملك والتوفيق في مقابلة الخـذلان وإليه الإشـارة بقوله تعـالى ومن كل شـيء خلقنا زوجين فـإن الموجـودات كلها متقابلة مزدوجة إلا الله تعـالى فإنه فـرد لا مقابل له بل هو الواحد الحق الخـالق للأزواج كلها فـالقلب متجـاذب بين الشـيطان والملك وقد قـال صـلى الله عليه وسـلم في القلب لمتـان لمة من الملك إيعـاد بـالخير وتصـديق بـالحق فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله سبحانه وليحمد الله ولمة من العدو إيعاد بالشر وتكذيب بالحق ونهي عن الخـير فمن وجد ذلك فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم ثم تلا قوله تعالى الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء[1] الآية وقال الحسن إنما هما همان يجولان في القلب هم من الله تعالى وهم من العدو فرحم الله عبدا وقف عند همه فما كـان من الله تعـالى أمضـاه وما كـان من عـدوه جاهده ولتجاذب القلب بين هذين المسلطين قال رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن[2] فالله يتعالى عن أن يكون لـه أصبع مركبة من لحم ودم وعصب منقسـمة بالأنامل ولكن روح الأصـبع سـرعة التقليب والقـدرة على التحريك والتغيـير فإنك لا تريد أصـبعك لشخصه بل لفعله في التقليب والترديد كما أنك تتعـاطى الأفعـال بأصـابعك والله تعـالى يفعل ما يفعل باستسـخار الملك والشـيطان وهما مسخران بقدرته في تقليب القلوب كما أن أصـابعك مسـخرة لك في تقليب الأجسـام مثلا والقلب بأصل الفطرة صالح لقبول آثار الملك ولقبول آثار الشيطان صـلاحا متسـاويا ليس يترجح أحدهما على الآخر وإنما يترجح أحد الجانبين باتباع الهوى والإكباب على الشهوات أو الإعراض عنها ومخالفتها فإن اتبع الإنسان مقتضى الغضب والشهوة ظهر تسلط الشيطان بواسطة الهوى وصار القلب عش الشيطان ومعدنه لأن الهوى هو مرعى الشيطان ومرتعه وإن جاهد الشهوات ولم يسـلطها على نفسه وتشـبه بـأخلاق الملائكة عليهم السـلام صـار قلبه مسـتقر الملائكة ومهبطهم ولما كـان لا يخلو قلب عن شـهوة وغضب وحـرص وطمع وطول أمل إلى غير ذلك من صـفات البشـرية المتشـعبة عن الهـوى لا جـرم لم يخل قلب عن أن يكون للشيطان فيه جولان بالوسوسة ولذلك قـال صـلى الله عليه وسـلم ما منكم

[1] حديث في القلب لمتان لمة من الملك إيعاد بالخير الحديث أخرجه الترمذي وحسنه والنسائي في الكبرى من حديث ابن مسعود أخرجه الترمذي والنسائي
[2] حديث قلب المؤمن بين أصبعين الحديث تقدم

من أحد إلا وله شيطان قالوا وأنت يا رسول الله قـال وأنا إلا أن الله أعـانني عليه فأسـلم فلا يأمر إلا بخير[1] وإنما كان هذا لأن الشيطان لا يتصرف إلا بواسطة الشهوة فمن أعانه الله على شهوته حـتى صـارت لا تنبسط إلا حيث ينبغي وإلى الحد الـذي ينبغي فشـهوته لا تدعو إلى الشر فالشيطان المتدرع بها لا يأمر إلا بالخير ومهما غلب على القلب ذكر الـدنيا بمقتضيات الهوى وجد الشيطان مجالا فوسوس ومهما انصرف القلب إلى ذكر الله تعـالى ارتحل الشيطان وضاق مجاله وأقبل الملك وألهم والتطارد بين جندي الملائكة والشـياطين في معركة القلب دائم إلى أن ينفتح القلب لأحـدهما فيسـتوطن ويسـتمكن ويكـون اجتيـاز الثـاني اختلاسا وأكـثر القلـوب قد فتحتها جنـود الشـياطين وتملكتها فـامتلأت بالوسـاوس الداعية إلى إيثار العاجلة واطراح الآخرة ومبدأ استيلائها اتبـاع الشـهوات والهـوى ولا يمكن فتحها بعد ذلك إلا بتخلية القلب عن قوت الشيطان وهو الهـوى والشـهوات وعمارته بـذكر الله تعالى الذي هو مطرح أثر الملائكة وقال جابر بن عبيدة العدوي شـكوت إلى العلاء بن زياد ما أجد في صدري من الوسوسة فقال إنما مثل ذلك مثل البيت الذي يمر به اللصوص فإن كان فيه شيء عالجوه وإلا مضوا وتركوه يعـني أن القلب الخـالي عن الهـوى لا يدخله الشيطان ولذلك قـال الله تعـالى إن عبـادي ليس لك عليهم سـلطان فكل من اتبع الهـوى فهو عبد الهوى لا عبد الله ولذلك سلط الله عليه الشيطان وقـال تعـالى أفـرأيت من اتخذ إلهه هواه وهو إشـارة إلى أن من الهـوى إلهه ومعبـوده فهو عبد الهـوى لا عبد الله ولـذلك قال عمرو ابن العاص للنبي صلى الله عليه وسلم يا رسول الله حال الشـيطان بيـني وبين صلاتي وقراءتي فقال ذلك شيطان يقـال له خـنزب فـإذا أحسسـته فتعـوذ بالله منه واتفل على يسارك ثلاثا قال ففعلت ذلك فأذهبه الله عني[2] وفي الخبر إن للوضوء شيطانا يقال له الولهان فاستعيذوا بالله منه[3] ولا يمحو وسوسة الشيطان من القلب إلا ذكر ما سوى ما يوسـوس به لأنه إذا خطر في القلب ذكر شـيء انعـدم منه ما كـان فيه من قبل ولكن كل شيء سوى الله تعالى وسوى ما يتعلق به فيجوز أيضا أن يكون مجالا للشـيطان وذكر الله هو الذي يؤمن جانبه ويعلم أنه ليس للشيطان فيه مجال ولا يعـالج الشـيء إلا بضـده وضد جميع وساوس الشيطان ذكر الله بالاستعاذة والتبري عن الحـول والقـوة وهو معـنى قولك أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وذلك لا يقـدر عليه إلا المتقون الغالب عليهم ذكر الله تعالى وإنما الشيطان يطوف عليهم في أوقات الفلتـات على سبيل الخلسة قال الله تعالى أن الذين اتقوا إذا مسهم طـائف من الشـيطان تـذكروا فإذا هم مبصرون وقال مجاهد في معنى قول الله تعالى من شر الوسواس الخنـاس قـال هو منبسط على القلب فـــإذا ذكر الله تعـــالى خنس وانقبض وإذا غفل انبسط على قلبه فالتطارد بين ذكر الله تعـالى ووسوسة الشـيطان كالتطـارد بين النـور والظلام وبين الليل والنهار ولتضادهما قال الله تعالى استحوذ عليهم الشـيطان فأنسـاهم ذكر الله وقـال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الشيطان واضع خرطومه على قلب ابن آدم فإن هو ذكر الله تعالى خنس وإن نسي الله تعالى التقم قلبه[4] وقال ابن وضاح في حديث ذكره إذا بلغ الرجل أربعين سـنة ولم يتب ولم يتب مسح الشـيطان وجهه بيـده وقـال بـأبي وجه من لا يفلح[5] وكما أن الشهوات ممتزجة بلحم ابن آدم ودمه فسلطنة الشيطان أيضا سارية في لحمه ودمه ومحيطة بالقلب من جوانبه ولذلك قال صلى الله عليه وسلم إن الشيطان يجـري من ابن آدم مجـرى الـدم فضيقوا مجاريـه بـالجوع[6] وذلـك لأن الجـوع يكسـر الشـهوة

---

[1] حديث ما منكم من أحد إلا وله شيطان الحديث أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود أخرجه مسلم

[2] حديث ابن أبي العاص إن الشيطان حال بيني وبين صلاتي الحديث أخرجه مسلم من حديث ابن أبي العاص أخرجه مسلم

[3] حديث إن للوضوء شيطانا يقال له الولهان الحديث أخرجه ابن ماجه والترمذي من حديث أبي بن كعب وقال غريب وليس إسناده بالقوي عند أهل الحديث أخرجه ابن ماجه والترمذي غريب وليس اسناده بالقوي

[4] حديث أنس إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم الحديث أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب مكايد الشيطان وأبو يعلى الموصلي وابن عدي في الكامل وضعفه

[5] حديث ابن وضاح إذا بلغ الرجل أربعين سنة ولم يتب مسح الشيطان بيده وجهه وقال بأبي وجه من لا يفلح لم أجد له أصلا

[6] حديث إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم تقدم

ومجرى الشـيطان الشـهوات ولأجل اكتنـاف الشـهوات للقلب من جوانبه قـال الله تعـالى إخبارا عن إبليس لأقعـدن لهم صـراطك المسـتقيم ثم لآتينهم من بين أيـديهم ومن خلفهم وعن إيمانهم وعن شمائلهم وقال صلى الله عليه وسلم إن الشيطان قعد لابن آدم بطـرق فقعد له بطريق الإسـلام فقـال أتسـلم وتـترك دينك ودين آبائك فعصـاه وأسـلم ثم قعد له بطريق الهجرة فقال أتهاجر أتدع أرضك وسمائك فعصاه وهـاجر هو قعد له بطريق الجهـاد فقـال أتجاهد وهو تلف النفس والمـال فتقاتل فتقتل فتنكح نسـاؤك ويقسم مالك فعصـاه وجاهد[1] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن فعل ذلك فمات كان حقا على الله أن يدخله الجنة فـذكر رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم معـنى الوسوسة وهي هـذه الخـواطر الـتي تخطر للمجاهد أنه يقتل وتنكح نسـاؤه وغـير ذلك مما يصـرفه عن الجهـاد وهذه الخواطر معلومة فإذا الوسواس معلوم بالمشاهدة وكل خاطر فله سبب ويفتقر إلى اسم يعرفه فاسم سـببه الشـيطان ولا يتصـور أن ينفك عنه آدمي وإنما يختلفـون بعصـيانه ومتابعته ولـذلك قـال عليه السلام مـا من أحد إلا ولـه شيطان[2] فقد اتضح بهذا النـوع من الاستبصار معنى الوسوسة والإلهام والملك والشـيطان والتوفيق والخـذلان فبعد هـذا نظر من ينظر في ذات الشيطان أنه جسم لطيف أو ليس بجسم وإن كان جسما فكيف يـدخل بدن الإنسان ما هو جسم فهذا الآن غير محتاج إليه في علم المعاملة بل مثال البـاحث عن هذا مثال من دخلت في ثيابه حية وهو محتاج إلى إزالتها ودفع ضررها فاشتغل بالبحث عن لونها وشكلها وطولها وعرضها وذلك عين الجهل فمصادمة الخـواطر الباعثة على الشر قد علمت ودل ذلك على أنه عن سـبب لا محالة وعلم أن الـداعي إلى الشر المحـذور في المسـتقبل عـدو فقد عـرف العـدو لا محـال فينبغي أن يشـتغل بمجاهدته وقد عـرف الله سبحانه عداوته في مواضع كثيرة من كتابه ليؤمن به ويحترز عنه فقال تعالى إن الشـيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير وقـال تعـالى ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشـيطان إنه لكم عـدو مـبين فينبغي للعبد أن يشـتغل بـدفع العـدو عن نفسه لا بالسـؤال عن أصـله ونسـبه ومسـكنه نعم ينبغي أن يسـأل عن سـلاحه ليدفعه عن نفسه وسلاح الشيطان الهوى والشهوات وذلك كاف للعـالمين فأما معرفة ذاته وصـفاته وحقيقته نعـوذ بالله منه وحقيقة الملائكة فـذلك ميـدان العـارفين المتغلغلين في علوم المكاشفات فلا يحتاج في علم المعاملة إلى معرفته نعم ينبغي أن يعلم أن الخـواطر تنقسم إلى ما يعلم قطعا أنه داع إلى الشر فلا يخفى كونه وسوسة وإلى ما يعلم أنه داع إلى الخـير فلا يشك في كونه إلهاما وإلى ما يـتردد فيه فلا يـدري أنه من لمة الملك أو من لمة الشيطان فإن من مكايد الشيطان أن يعرض الشر في معرض الخير والتمييز في ذلك غامض وأكثر العباد به يهلكون فإن الشيطان لا يقدر على دعائهم إلى الشر الصريح فيصور الشر بصـورة الخـير كما يقـول للعـالم بطريق الوعظ أما تنظر إلى الخلق وهم مـوتى من الجهل هلكى من الغفلة قد أشـرفوا على النـار أما لك رحمة على عبـاد الله تنقـذهم من المعـاطب بنصـحك ووعظك وقد أنعم الله عليك بقلب بصـير ولسـان ذلق ولهجة مقبولة فكيف تكفر نعمة الله تعالى وتتعرض لسخطه وتسكت عن إشاعة العلم ودعوة الخلق إلى الصـراط المسـتقيم وهو لا يـزال يقـرر ذلك في نفسه ويسـتجره بلطيف الحيل إلى أن يشتغل بوعظ الناس ثم يدعوه بعد ذلك إلى أن يتزين لهم ويتصنع بتحسـين اللفظ وإظهـار الخير ويقـول له إن لم تفعل ذلك سـقط وقع كلامك من قلـوبهم ولم يهتـدوا إلى الحق ولا يـزال يقـرر ذلك عنـده وهو في أثنائه يؤكد فيه شـوائب الريـاء وقبـول الخلق ولـذة الجـاه والتعزز بكثرة الأتباع والعلم والنظر إلى الخلق بعين الاحتقـار فيسـتدرج المسـكين بالنصح إلى الهلاك فيتكلم وهو يظن أن قصده الخير وإنما قصده الجاه والقبول فيهلك بسـببه وهو يظن أنه عند الله بمكان وهو من الـذين قـال فيهم رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم إن

---

[1] حديث إن الشيطان قعد لابن آدم بطريق الحديث أخرجه النسائي من حديث سبرة بن أبي فاكه بإسناد صحيح

[2] حديث ما من أحد إلا له شيطان الحديث تقدم

الله ليؤيد هذا الدين بقوم لا خلاق لهم[1] و إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر[2] ولذلك روى أن إبليس لعنه الله تمثل لعيسى ابن مريم صلى الله عليه وسلم فقال له قل لا إله إلا الله فقال كلمة حق ولا أقولها بقولك لأن له أيضا تحت الخير تلبيسات وتلبيسات الشيطان من هذا الجنس لا تتناهى وبها يهلك العلماء والعباد والزهاد والفقراء والأغنياء وأصناف الخلق ممن يكرهون ظاهر الشر ولا يرضون لأنفسهم الخوض في المعاصي المكشوفة وسنذكر جملة من مكايد الشيطان في كتاب الغرور في آخر هذا الربع ولعلنا إن أمهل الزمان صنفنا فيه كتابا على الخصوص نسميه تلبيس إبليس فإنه قد انتشر الآن تلبيسه في البلاد والعباد لا سيما في المذاهب والاعتقادات حتى لم يبق من الخيرات إلا رسمها كل ذلك إذعانا لتلبيسات الشيطان ومكايده فحق على العبد أن يقف عند كل هم يخطر له ليعلم أنه من لمة الملك أو من لمة الشيطان وأن يمعن النظر فيه بعين البصيرة لا بهوى من الطبع ولا يطلع عليه إلا بنور التقوى والبصيرة وغزارة العلم كما قال تعالى إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا أي رجعوا إلى نور العلم فإذا هم مبصرون أي ينكشف لهم الإشكال فأما من لم يرض نفسه بالتقوى فيميل طبعه إلى الإذعان بتلبيسه بمتابعة الهوى فيكثر فيه غلطه ويتعجل فيه هلاكه وهو لا يشعر وفي مثلهم قال سبحانه وتعالى وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون قيل هي أعمال ظنوها حسنات فإذا هي سيئات وأغمض أنواع علوم المعاملة الوقوف على خدع النفس ومكايد الشيطان وذلك فرض عين على كل عبد وقد أهمله الخلق واشتغلوا بعلوم تستجر إليهم الوسواس وتسلط عليهم الشيطان وتنسيهم عداوته وطريق الاحتراز عنه ولا ينجي من كثرة الوسواس إلا سد أبواب الخواطر وأبوابها الحواس الخمس وأبوابها من داخل الشهوات وعلائق الدنيا والخلوة في بيت مظلم تسد باب الحواس والتجرد عن الأهل والمال يقلل مداخل الوسواس من الباطن ويبقى مع ذلك مداخل باطنة في التخيلات الجارية في القلب وذلك لا يدفع إلا بشغل القلب بذكر الله تعالى ثم إنه لا يزال يجاذب القلب وينازعه ويلهيه عن ذكر الله تعالى فلا بد من مجاهدته وهذه مجاهدة لا آخر لها إلا الموت إذ لا يتخلص أحد من الشيطان ما دام حيا نعم قد يقوى بحيث لا ينقاد له ويدفع عن نفسه شره بالجهاد ولكن لا يستغني قط عن الجهاد والمدافعة ما دام الدم يجري في بدنه فإذا ما دام حيا فأبواب الشيطان مفتوحة إلى قلبه لا تنغلق وهي الشهوة والغضب والحسد والطمع والشره وغيرها كما سيأتي شرحها ومهما كان الباب مفتوحا والعدو غير غافل لم يدفع إلا بالحراسة والمجاهدة قال رجل للحسن يا أبا سعيد أينام الشيطان فتبسم وقال لو نام لاسترحنا فإذن لا خلاص للمؤمن منه نعم له سبيل إلى دفعه وتضعيف قوته قال صلى الله عليه وسلم إن المؤمن ينضى شيطانه كما ينضى أحدكم بعيره في سفره[3] وقال ابن مسعود شيطان المؤمن مهزول وقال قيس بن الحجاج قال لي شيطاني دخلت فيك وأنا مثل الجزور وأنا الآن مثل العصفور قلت ولم ذاك قال تذيبني بذكر الله تعالى فأهل التقوى لا يتعذر عليهم سد أبواب الشيطان وحفظها بالحراسة أعني الأبواب الظاهرة والطرق الجلية التي تفضي إلى المعاصي الظاهرة وإنما يتعثرون في طرقه الغامضة فإنهم لا يهتدون إليها فيحرسونها كما أشرنا إليه في غرور العلماء والوعاظ والمشكل أن الأبواب المفتوحة إلى القلب للشيطان كثيرة وباب الملائكة باب واحد وقد التبس ذلك الباب الواحد بهذه الأبواب الكثيرة فالعبد فيها كالمسافر الذي يبقى في بادية كثيرة الطرق غامضة المسالك في ليلة مظلمة فلا يكاد يعلم الطريق إلا بعين بصيرة وطلوع شمس مشرقة والعين البصيرة ههنا هي القلب المصفى بالتقوى والشمس المشرقة هو العلم الغزير المستفاد من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم مما يهدي إلى غوامض طرقه وإلا فطرقه كثيرة وغامضة قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما خطا وقال هذا سبيل الله ثم خط خطوطا عن يمين الخط وعن شماله ثم قال هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه ثم تلا وأن هذا

---

[1] حديث إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم أخرجه النسائي من حديث أنس بإسناد جيد

[2] حديث إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم في العلم

[3] حديث إن المؤمن ينضى شيطانه الحديث أخرجه أحمد من حديث أبي هريرة وفيه ابن لهيعة

صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل لتلك الخطوط[1] فبين صلى الله عليه وسلم كثرة طرقه وقد ذكرنا مثالا للطريق الغامض من طرقه وهو الذي يخدع به العلماء والعبـاد المالكين لشهواتهم الكافين عن المعاصي الظـاهرة فلنـذكر مثـالا لطريقه الواضح الـذي لا يخفى إلا أن يضطر الآدمي إلى سلوكه وذلك كما روى عن النبي صلى الله عليه وسـلم أنه قال كان راهب في بني إسرائيل فعمد الشيطان إلى جارية فخنقها وألقى في قلـوب أهلها أن دواءها عند الـراهب فـأتوا بها إليه فـأبى أن يقبلها فلم يزالـوا به حـتى قبلها فلما كـانت عنـده ليعالجها أتـاه الشـيطان فـزين له مقاربتها ولم يـزل به حـتى واقعها فحملت منه فوسوس إليه وقال الآن تفتضح يأتيك أهلها فاقتلها فـإن سـألوك فقل مـاتت فقتلها ودفنها فـأتى الشـيطان أهلها فوسـوس إليهم وألقى في قلـوبهم أنه أحبلها ثم قتلها ودفنها فأتـاه أهلها فسألوه عنها فقال ماتت فأخذوه ليقتلـوه بها فأتـاه الشـيطان فقـال أنا الـذي خنقتها وأنا الـذي ألقيت في قلـوب أهلها فـأطعني تنج وأخلصك منهم قـال بمـاذا قـال اسـجد لي سجدتين فسجد له سجدتين فقال له الشيطان إني بـرىء منك فهو الـذي قـال الله تعـالى فيه كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك[2] فانظر الآن إلى حيله واضطراره الراهب إلى هذه الكبـائر وكل ذلك لطاعته له في قبـول الجارية للمعالجة وهو أمر هين وربما يظن صاحبه أنه خير وحسنة فيحسن ذلك في قلبه بخفي الهوى فيقدم عليه كالراغب في الخير فيخرج الأمر بعد ذلك عن اختياره ويجره البعض إلى البعض بحيث لا يجد محيصا فنعـوذ بالله من تضـييع أوائل الأمـور وإليه الإشـارة بقوله صـلى الله عليه وسلم من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه[3].

بيان تفصيل مداخل الشيطان إلى القلب

اعلم أن مثال القلب مثال حصن والشيطان عدو يريد أن يـدخل الحصن فيملكه ويسـتولي عليه ولا يقـدر على حفظ الحصن من العـدو إلا بحراسة أبـواب الحصن ومداخله ومواضع ثلمه ولا يقدر على حراسة أبوابه من لا يدري أبوابه فحماية القلب عن وسـواس الشـيطان واجبة وهو فـــرض عين على كل عبد مكلف وما لا يتوصل إلى الــــواجب إلا به فهو أيضا واجب ولا يتوصل إلى دفع الشــــيطان إلا بمعرفة مداخله فصــــارت معرفة مداخله واجبة ومـداخل الشـيطان وأبوابه صـفات العبد وهي كثـيرة ولكنا نشـير إلى الأبـواب العظيمة الجارية مجرى الدروب التي لا تضيق عن كثرة جنود الشيطان فمن أبوابه العظيمة الغضب والشـهوة فـإن الغضب هو غـول العقل وإذا ضـعف جند العقل هجم جند الشـيطان ومهما غضب الإنســان لعب الشــيطان به كما يلعب الصــبي بــالكرة فقد روي أن موسى عليه السلام لقيه إبليس فقال له يا موسى أنت الذي اصـطفاك الله برسـالته وكلمك تكليما وأنا خلق من خلق الله أذنبت وأريد أن أتوب فاشـفع لي إلى ربي أن يتـوب علي فقـال موسى نعم فلما صـعد موسى الجبل وكلم ربه عز وجل وأراد الـنزول قـال له ربه أد الأمانة فقـال موسى يا رب عبدك إبليس يريد أن تتوب عليه فأوحى الله تعالى إلى موسى يا موسى قد قضيت حاجتك مره أن يسجد لقـبر آدم حـتى يتـاب عليه فلقي موسى إبليس فقـال له قد قضيت حاجتك أمرت أن تسجد لقبر آدم حتى يتاب عليك فغضب واستكبر وقال لم أســجد له حيا أأســـجد له ميتا ثم قـــال له يا موسى إن لك علي حقا بما شـــفعت لي إلى ربك فـاذكرني عند ثلاث لا أهلكك فيهن اذكـرني حين تغضب فـإن روحي في قلبك وعيـني في عينك وأجري منك مجرى الدم اذكـرني إذا غضـبت فإنه إذا غضب الإنسـان نفخت فيه أنفه فما يدري ما يصنع واذكرني حين تلقي الزحف فإني آتى ابن آدم حين يلقى الزحف فأذكره

---

[1] حديث ابن مسعود خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا فقال هذا سبيل الله الحديث أخرجه النسائي في الكبرى والحاكم وقال صحيح الإسناد

[2] حديث كان راهب في بني إسرائيل فأخذ الشيطان جارية فخنقها وألقى في قلوب أهلها أن دواءها عند الراهب الحديث بطوله في قوله تعالى كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر رواه ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان وابن مردويه في تفسيره في حديث عبيد بن أبي رفاعة مرسلا وللحاكم نحوه موقوفا على علي بن أبي طالب وقال صحيح الإسناد ووصله بطين في مسنده من حديث علي

[3] حديث من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه متفق عليه من حديث النعمان ابن بشير من يرتع حول الحمى يوشك أن يواقعه لفظ البخاري

زوجته وولده وأهله حتى يولى وإياك أن تجلس إلى امرأة ليست بذات محرم فإني رسولها إليك ورسولك إليها فلا أزال حتى أفتنك بها وأفتنها بك فقد أشار بهذا إلى الشهوة والغضب والحـرص فـإن الفـرار من الزحف حـرص علي الـدنيا وامتناعه من السـجود لآدم ميتا هو الحسد وهو أعظم مداخله وقد ذكر أن بعض الأولياء قـال لإبليس أرني كيف تغلب ابن آدم فقال آخذه عند الغضب وعند الهوى فقد حكى أن إبليس ظهر لراهب فقال له الـراهب أي أخلاق بني آدم أعون لك قـال الحـدة فـإن العبد إذا كـان حديـدا قلبنـاه كما يقلب الصـبيان الكرة وقيل إن الشيطان يقول كيف يغلبـني ابن آدم وإذا رضي جئت حـتى أكـون في قلبه وإذا غضب طرت حـتى أكـون في رأسه ومن أبوابه العظيمة الحسد والحـرص فمهما كـان العبد حريصا على كل شـيء أعمـاه حرصه وأصـمه إذ قـال صـلى الله عليه وسـلم حبك للشيء يعمي ويصم[1] ونـور البصيرة هـو الـذي يعـرف مـداخل الشيطان فـإذا غطاء الحسـد والحـرص لم يبصر فحينئذ يجد الشـيطان فرصة فيحسن عند الحـريص كل ما يوصـله إلى شهوته وإن كان منكرا وفاحشا فقد روي أن نوحا عليه السلام لما ركب السفينة حمل فيها من كل زوجين اثنين كما أمره الله تعالى فرأى في السفينة شيخا لم يعرفه فقـال له نـوح ما أدخلك فقال دخلت لأصيب قلوب أصحابك فتكون قلوبهم معي وأبـدانهم معك فقـال له نوح أخرج منها يا عدو الله فإنك لعين فقـال له إبليس خمس أهلك بهن النـاس وسـأحدثك منهم بثلاث ولا أحدثك باثنتين فأوحى الله تعالى إلى نوح أنه لا حاجة لك بـالثلاث فليحـدثك بالاثنين فقال له نـوح ما الاثنتـان فقـال هما اللتـان لا تكـذباني هما اللتـان لا تخلفـاني بهما أهلك الناس الحرص والحسد فبالحسد لعنت وجعلت شيطانا رجيما وأما الحـرص فإنه أبيح لآدم الجنة كلها إلا الشجرة فأصـبت حـاجتي منه بـالحرص ومن أبوابه العظيمة الشـبع من الطعام وإن كان حلالا صافيا فإن الشبع يقوي الشهوات والشهوات أسـلحة الشـيطان فقد روي أن إبليس ظهر ليحيى بن زكريا عليهما السلام فرأى عليه معاليق من كل شيء فقال له يا إبليس ما هذه المعاليق قال هذه الشـهوات الـتي أصـبت بها ابن آدم فقـال فهل فيها من شيء قال ربما شبعت فثقلناك عن الصلاة وعن الذكر قال فهل غـير ذلك قـال لا قـال لله علي أن لا أملأ بطني من الطعام أبدا فقال له إبليس ولله علي أن لا أنصح مسلما أبدا ويقال في كثرة الأكل ست خصال مذمومة أولها أن يـذهب خـوف الله من قلبه الثـاني أن يـــذهب رحمة الخلق من قلبه لأنه يظن أنهم كلهم شـــباع والثـــالث أنه يثقل عن الطاعة والرابع أنه إذا سمع كلام الحكمة لا يجد له رقة والخـامس أنه إذا تكلم بالموعظة والحكمة لا يقع في قلوب الناس والسادس أن يهيج فيه الأمراض ومن أبوابه حب التزين من الأثـاث والثياب والدار فإن الشيطان إذا رأى ذلك غالبا على قلب الإنسان باض فيه وفرخ فلا يزال يـدعوه إلى عمـارة الـدار وتـزيين سـقوفها وحيطانها وتوسـيع أبنيتها ويـدعوه إلى الـتزين بالثياب والدواب ويستسـخره فيها طـول عمـره وإذا أوقعه في ذلك فقد اسـتغنى أن يعـود إليه ثانية فـإن بعض ذلك يجـره إلى البعض فلا يـزال يؤديه من شـيء إلى شـيء إلى أن يسـاق إليه أجله فيمـوت وهو في سـبيل الشـيطان واتبـاع الهـوى ويخشى من ذلك سـوء العاقبة بـالكفر نعـوذ بالله منه ومن أبوابه العظيمة الطمع في النـاس لأنه إذا غلب الطمع على القلب لم يـزل الشـيطان يحبب إليه التصـنع والـتزين لمن طمع فيه بـأنواع الريـاء والتلـبيس حـتى المطمـوع فيه كأنه معبـوده فلا يـزال يتفكر في حيلة التـودد والتحبب إليه ويـدخل كل مـدخل للوصـول إلى ذلك وأقل أحواله الثنـاء عليه بما ليس فيه والمداهنة له بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقد روى صـفوان بن سـليم أن إبليس تمثل لعبد الله بن حنظلة فقال له يا ابن حنظلة احفظ عني شيئا أعلمك به فقال لا حاجة لي به قـال انظر فإن كان خيرا أخذت وإن كان شرا رددت يا ابن حنظلة لا تسأل أحدا غير الله سـؤال رغبة وانظر كيف تكـون إذا غضـبت فـإني أملكك إذا غضـبت ومن أبوابه العظيمة العجلة وترك التثبت في الأمور وقال صلى الله عليه وسلم العجلة من الشـيطان والتـأني من الله تعالى[2] وقال عز وجل خلق الإنسان من عجل وقال تعالى وكان الإنسان عجولا وقال لنبيه

[1] حديث حبك للشيء يعمي ويصم أخرجه أبو داود من حديث أبي الدرداء بإسناد ضعيف
[2] حديث العجلة من الشيطان والتأني من الله أخرجه الترمذي من حديث سهل بن سعد بلفظ الأناة وقال حسن

صلى الله عليه وسلم ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضي إليك وحيه وهذا لأن الأعمال ينبغي أن تكون بعد التبصرة والمعرفة والتبصرة تحتاج إلى تأمل وتمهل والعجلة تمنع من ذلك وعند الاستعجال يروج الشيطان شره على الإنسان من حيث لا يدري فقد روي أنه لما ولد عيسى بن مريم عليه السلام أتت الشياطين إبليس فقالوا أصبحت الأصنام قد نكست رءوسها فقال هذا حادث مكانكم فطار حتى أتى خافقي الأرض فلم يجد شيئا ثم وجد عيسى عليه السلام قد ولد وإذا الملائكة حافين به فرجع إليهم فقال إن نبيا قد ولد البارحة ما حملت أنثى قط ولا وضعت إلا وأنا حاضرها إلا هذا فأيسوا من أن تعبد الأصنام بعد هذه الليلة ولكن ائتوا بني آدم من قبل العجلة والخفة ومن أبوابه العظيمة الدراهم والدنانير وسائر أصناف الأموال من العروض والدواب والعقار فإن كل ما يزيد على قدر القوت والحاجة فهو مستقر الشيطان فإن من معه قوته فهو فارغ القلب فلو وجد مائة دينار مثلا على طريق انبعث من قلبه شهوات تحتاج كل شهوة منها إلى مائة دينار أخرى فلا يكفيه ما وجد بل يحتاج إلى تسعمائة أخرى وقد كان قبل وجود المائة مستغنيا فالآن لما وجد مائة ظن أنه صار بها غنيا وقد صار محتاجا إلى تسعمائة ليشتري دارا يعمرها وليشتري جارية وليشتري أثاث البيت ويشتري الثياب الفاخرة وكل شيء من ذلك يستدعي شيئا آخر يليق به وذلك لا آخر له فيقع في هاوية آخرها عمق جهنم فلا آخر لها سواهقال ثابت البناني لما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إبليس لشياطينه لقد حدث أمر فانظروا ما هو فانطلقوا حتى أعيوا ثم جاءوا وقالوا ما ندري قال أنا آتيكم بالخبر فذهب ثم جاء وقال قد بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم قال فجعل يرسل شياطينه إلى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فينصرفون خائبين ويقولون ما صحبنا قوما قط مثل هؤلاء نصيب منهم ثم يقومون إلى صلاتهم فيمحي ذلك فقال لهم إبليس رويدا بهم عسى الله أن يفتح لهم الدنيا فنصيب منهم حاجتنا[1] وروي أن عيسى عليه الصلاة والسلام توسد يوما حجرا فمر به إبليس فقال يا عيسى رغبت في الدنيا فأخذه عيسى صلى الله عليه وسلم فرمى به من تحت رأسه وقال هذا لك مع الدنيا وعلى الحقيقة من يملك حجرا يتوسد به عند النوم فقد ملك من الدنيا ما يمكن أن يكون عدة للشيطان عليه فإن القائم بالليل مثلا للصلاة مهما كان بالقرب منه حجر يمكن أن يتوسده فلا يزال يدعوه إلى النوم وإلى أن يتوسده ولو لم يكن ذلك لكان لا يخطر له ذلك ببال ولا تتحرك رغبته إلى النوم هذا في حجر فكيف بمن يملك المخاد الميثرة والفرش الوطيئة والمتنزهات الطيبة فمتى ينشط لعبادة الله تعالى ومن أبوابه العظيمة البخل وخوف الفقر فإن ذلك هو الذي يمنع الإنفاق والتصدق ويدعو إلى الادخار والكنز والعذاب الأليم وهو الموعود للمكاثرين كما نطق به القرآن العزيز قال خيثمة بن عبد الرحمن إن الشيطان يقول ما غلبني ابن غلبة فلن يغلبني على ثلاث أن آمره أن يأخذ المال من غير حقه وإنفاقه في غير حقه ومنعه من حقه وقال سفيان ليس للشيطان سلاح مثل خوف الفقر فإذا قبل ذلك منه أخذ في الباطل ومنع من الحق وتكلم بالهوى وظن بربه ظن السوء ومن آفات البخل الحرص على ملازمة الأسواق لجمع المال والأسواق هي معشش الشياطين وقال أبو أمامة إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن إبليس لما نزل إلى الأرض قال يارب أنزلتني إلى الأرض وجعلتني رجيما فاجعل لي بيتا قال الحمام قال أجعل لي مجلسا قال الأسواق ومجامع الطرق قال اجعل لي طعاما قال طعامك ما لم يذكر اسم الله عليه قال اجعل لي شرابا قال كل مسكر قال اجعل لي مؤذنا قال المزامير قال اجعل لي قرآنا قال الشعر قال اجعل لي كتابا قال الوشم قال اجعل لي حديثا قال الكذب قال اجعل لي مصايد قال النساء[2] ومن أبوابه العظيمة التوصل التعصب للمذاهب والأهواء والحقد على الخصوم والنظر إليهم بعين الأزدراء والاستحقار وذلك مما يهلك العباد

---

[1] حديث ثابت لما بعث صلى الله عليه وسلم قال إبليس لشياطينه لقد حدث أمر الحديث أخرجه ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان هكذا مرسلا

[2] حديث أبي أمامة إن إبليس لما نزل إلى الأرض قال يارب أنزلتني إلى الأرض وجعلتني رجيما فاجعل لي بيتا قال الحمام الحديث أخرجه الطبراني في الكبير وإسناده ضعيف جدا ورواه بنحوه من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف أيضا

والفساق جميعا فإن الطعن في النـاس والاشـتغال بـذكر نقصـهم صـفة مجبولة في الطبع من الصفات السبعية فإذا خيل إليه الشـيطان أن ذلك هو الحق وكـان موافقا لطبعه غلبت حلاوته على قلبه فاشـتغل به بكل همته وهو بـذلك فرحـان مسـرور يظن أنه يسـعى في الدين وهو سـاع في اتبـاع الشـياطين فـترى الواحد منهم يتعصب لأبي بكر الصـديق رضي الله عنه وهو آكل الحرام ومطلق اللسان بالفضول والكذب ومتعاط لأنواع الفساد ولو رآه أبو بكر لكان أول عـدو له إذ مـوالي أبي بكر من أخذ سـبيله وسـار بسـيرته وحفظ ما بين لحييه وكان من سيرته رضي الله عنه أن يضع حصاة في فمه ليكف لسانه عن الكلام فيما لا يعنيه فـأنى لهـذا الفضـولي أن يـدعى ولاءه وحبه ولا يسـير بسـيرته وتـرى فضـوليا آخر يتعصب لعلي رضي الله عنه وكان من زهد علي وسـيرته أنه لبس في خلافته ثوبا اشـتراه بثلاثة دراهم وقطع رأس الكمين إلى الرسغ ونـــرى الفاسق لابسا الثيـــاب الحرير ومتجملا بأموال اكتسبها من حرام وهو يتعـاطى حب علي رضي الله عنه ويدعيه وهو أول خصـمائه يوم القيامة وليت شعري من أخذ ولدا عزيزا لإنسان هو قرة عينه وحياة قلبه فأخذ يضـربه و يمزقه وينتف شعره ويقطعه بالمقراض وهو مع ذلك يدعي حب أبيه وولاءه فكيف يكـون حاله عنـده ومعلـوم أن الـدين والشـرع كانا أحب إلا أبي بكر وعمر وعثمـان وعلى وسـائر الصـحابة رضي الله عنهم من الأهل والولد بل من أنفسـهم والمقتحمـون لمعاصي الشـرع هم الذين يمزقون الشرع ويقطعونه بمقاريض الشهوات ويتوددون به إلى عـدو الله إبليس وعدو أوليائه فترى كيف يكون حالهم يوم القيامة عند الصحابة وعند أولياء الله تعالى لا بل لو كشف الغطاء وعرف هؤلاء ما تحبه الصحابة في أمة رسول الله صلى الله عليه وســلم لاستحيوا أن يجـروا على اللسـان ذكـرهم مع قبح أفعـالهم ثم إن الشـيطان يخيل إليهم أن من مات محبا لأبي بكر وعمر فالنار لا تحوم حوله ويخيل إلى الآخر أنه إذا مات محبا لعلي لم يكن عليه خوف وهذا رسول الله صـلى الله عليه وسـلم يقـول لفاطمة رضي الله عنها وهي بضعة منه[1] إعملي فـإني لا أغني عنك من الله شيئا[2] وهذا مثال أوردناه من جملة الأهواء وهكذا حكم المتعصبين للشافعي وأبي حنيفة ومالك وأحمد وغيرهم من الأئمة فكل من ادعى مذهب إمام وهو ليس يسير بسيرته فذلك الإمام هو خصمه يوم القيامة إذ يقول له كان مذهبي العمل دون الحـديث باللسـان وكـان الحـديث باللسـان لأجل العمل لا لأجل الهذيان فما بالك خـالفتني في العمل والسـيرة الـتي هي مـذهبي ومسـلكي الـذي سـلكته وذهبت فيه إلى الله تعالى ثم ادعيت مذهبي كاذبا وهذا مدخل عظيم من مداخل الشيطان قد أهلك به أكـثر العـالم وقد سـلمت المـدارس لأقـوام قل من الله خـوفهم وضـعفت في الدين بصيرتهم وقويت في الـدنيا رغبتهم واشـتد على الاسـتتباع حرصـهم ولم يتمكنـوا من الاسـتتباع وإقامة الجـاه إلا بالتعصب فحبسـوا ذلك في صـدورهم ولم ينبهـوهم على مكايد الشيطان فيه بل نابوا عن الشيطان في تنفيذ مكيدته فاستمر النـاس عليه ونسـوا أمهـات دينهم فقد هلكوا وأهلكوا فالله تعالى يتوب علينا وعليهم وقال الحسن بلغنا أن إبليس قـال سولت لأمة محمد صلى الله عليه وسـلم المعاصي فقصـموا ظهـري بالاسـتغفار فسـولت لهم ذنوبا لا يستغفرون الله تعالى منها وهي الأهواء وقد صـدق الملعـون فـإنهم لا يعلمـون أن ذلك من الأســباب الــتي تجر إلى المعاصي فكيف يســتغفرون منها ومن عظيم حيل الشـيطان أن يشـغل الإنسـان عن نفسه بالاختلافـات الواقعة بين النـاس في المـذاهب والخصومات قـال عبد الله بن مسـعود جلس قـوم يـذكرون الله تعـالى فأتـاهم الشـيطان ليقيمهم عن مجلسهم ويفرق بينهم فلم يستطع فأتى رفقة أخـرى يتحـدثون بحـديث الـدنيا فأفسد بينهم فقاموا يقتتلون وليس إياهم يريد فقـام الـذين يـذكرون الله تعـالى فاشـتغلوا بهم يفصـلون بينهم فتفرقـوا عن مجلسـهم وذلك مـراد الشـيطان منهم ومن أبوابه حمل العوام الذين لم يمارسـوا العلم ولم يتبحـروا فيه على التفكر في ذات الله تعـالى وصـفاته وفي أمور لا يبلغها حد عقولهم حتى يشككهم في أصل الدين أو يخيل إليهم في الله تعالى خيالات يتعالى الله عنها يصير أحدهم بها كـافرا أو مبتـدعا وهو به فـرح مسـرور مبتهج بما وقع في صـدره يظن ذلك هو المعرفة والبصـيرة وأنه انكشف له ذلك بذكائه وزيـادة عقله

---

[1] حديث فاطمة بضعة مني متفق عليه من حديث المسور بن مخرمة

[2] حديث إني لا أغني عنك من الله شيئا قاله لفاطمة متفق عليه من حديث أبي هريرة

فأشد الناس حماقة أقواهم اعتقادا في عقل نفسه وأثبت الناس عقلا أشدهم اتهاما لنفسه وأكثرهم سؤالا من العلماء قـالت عائشة رضي الله عنها قـال رسـول الله صـلى الله عليه وسلم إن الشيطان يأتي أحدكم فيقول من خلقك فيقـول الله تبـارك وتعـالى فيقـول فمن خلق الله فـإذا وجد أحـدكم ذلك فليقل آمنت بالله ورسـوله فـإن ذلك يـذهب عنه حـديث عائشة أن الشـيطان يـأتي أحـدكم فيقـول من خلقك فيقـول الله الحـديث أخرجه أحمد والـبزار وأبو يعلى في مسـانيدهم ورجاله ثقـات وهو متفق عليه من حـديث أبي هريـرة والنبي صلى الله عليه وسلم لم يأمر بالبحث في علاج هذا الوسـواس فـإن هـذا وسـواس يجده عوام الناس دون العلمـاء وإنما حق العـوام أن يؤمنـوا ويسـلموا ويشـتغلوا بعبـادتهم ومعايشهم ويتركوا العلم للعلماء فالعامي لو يزني ويسرق كـان خـيرا له من أن يتكلم في العلم فإنه من تكلم في الله وفي دينه من غـــير إتقـــان العلم وقع في الكفر من حيث لا يدري كمن يـركب لجة البحر وهو لا يعـرف السـباحة ومكايد الشـيطان فيما يتعلق بالعقائد والمذاهب لا تحصر وإنما أردنا بما أوردناه المثال ومن أبوابه سـوء الظن بالمسـلمين قـال الله تعالى يا أيها الـذين آمنـوا اجتنبـوا كثـيرا من الظن إن بعض الظن إثم فمن يحكم بشر على غـيره بـالظن بعثه الشـيطان على أن يطـول فيه اللسـان بالغيبة فيهلك أو يقصر في القيام بحقوقه أو يتـوانى في إكرامه وينظر إليه بعين الاحتقـار ويـرى نفسه خـيرا منه وكل ذلك من المهلكات ولأجل ذلك منع الشرع من التعرض للتهم فقال صـلى الله عليه وسـلم اتقوا مواضع التهم[1] حتى احترز هو صلى الله عليه وسلم من ذلك روي عن علي بن حسين أن صـفية بنت حـيى بن أخطب أخبرته أن النـبي صـلى الله عليه وسـلم كـان معتكفا في المسـجد قـالت فأتيته فتحـدثت عنـده فلما أمسـيت انصـرفت فقـام يمشي معي فمر به رجلان من الأنصار فسلما ثم انصرفا فناداهما وقال إنها صفة بنت حيى فقالا يا رسول الله ما نظن بك إلا خيرا فقـال إن الشـيطان يجـرى من ابن آدم مجـرى الـدم من الجسد وإني خشيت أن يدخل عليكما[2] فانظر كيف أشفق صلى الله عليه وسلم على دينهما فحرسهما وكيف أشفق على أمته فعلمهم طريق الاحـتراز من التهمة حـتى لا يتسـاهل العـالم الـورع المعروف بالدين في أحواله فيقول مثلي لا يظن به إلا الخـير إعجابا منه بنفسه فـإن أورع النـاس وأتقـاهم وأعلمهم لا ينظر النـاس كلهم إليه بعين واحـدة بل بعين الرضا بعضـهم وبعين السـخط بعضـهم ولـذلك قـال الشـاعر وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا فيجب الاحتراز عن ظن السوء وعن تهمة الأشرار فـإن الأشـرار لا يظنون بالناس كلهم إلا الشر فمهما رأيت إنسانا يسيء الظن بالناس طالبا للعيوب فـاعلم أنه خـبيث البـاطن وأن ذلك خبثه يترشح منه وإنما رأى غـيره من حيث هو فـإن المـؤمن يطلب المعاذير والمنافق يطلب العيوب والمؤمن سليم الصـدر في حق كافة الخلق فهـذه بعض مـداخل الشـيطان إلى القلب ولو أردت استقصـاء جميعها لم أقـدر عليه وفي هـذا القدر ما ينبه على غيره فليس في الآدمي صفة مذمومة إلا وهي سلاح الشـيطان ومـدخل من مداخله فـإن قلت فما العلاج في دفع الشـيطان وهل يكفي في ذلك ذكر الله تعـالى وقول الإنسان لا حول ولا قـوة إلا بالله فـاعلم أن علاج القلب في ذلك سد هـذه المـداخل بتطهير القلب من هذه الصفات المذمومة وذلك مما يطـول ذكـره وغرضـنا في هـذا الربع من الكتاب بيان علاج الصفات المهلكات وتحتاج كل صفة إلى كتاب منفرد على ما سـيأتي شرحه نعم إذا قطعت من القلب أصـول هـذه الصـفات كـان للشيطان بـالقلب اجتيـازات وخطـرات ولم يكن له اسـتقرار ويمنعه من الاجتيـاز ذكر الله تعـالى لأن حقيقة الـذكر لا تتمكن من القلب إلا بعد عمارة القلب بالتقوى وتطهيره من الصفات المذمومة وإلا فيكون الذكر حديث نفس لا سلطان له على القلب فلا يدفع سـلطان الشـيطان ولـذلك قـال الله تعالى إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون خصص بذلك المتقى فمثل الشـيطان كمثل كلب جـائع يقـرب منك فـإن لم يكن بين يـديك خـبز أو لحم فإنه ينزجر بأن تقول له اخسأ فمجرد الصوت يدفعه فإن كان بين يديك لحم وهو جائع فإنه

---

[1] حديث اتقوا مواضع التهم لم أجد له أصلا

[2] حديث صفية بنت حيى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان معتكفا فأتيته فتحدثت عنده الحديث وفيه أن الشطيان يجري من ابن آدم مجرى الدم متفق عليه

يهجم على اللحم ولا يندفع بمجرد الكلام فالقلب الخالي عن قوت الشيطان ينزجر عنه بمجرد الذكر فأما الشهوة إذا غلبت على القلب دفعت حقيقة الذكر إلى حواشي القلب فلم يتمكن من سويدائه فيستقر الشيطان في سويداء القلب وأما قلوب المتقين الخالية من الهوى والصفات المذمومة فإنه يطرقها الشيطان لا للشهوات بل لخلوها بالغفلة عن الذكر فإذا عاد إلى الذكر خنس الشيطان ودليل ذلك قوله تعالى فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم وسائر الأخبار والآيات الواردة في الذكر قال أبو هريرة التقى شيطان المؤمن وشيطان الكافر فإذا شيطان الكافر دهين سمين كاس وشيطان المؤمن مهزول أشعث أغبر عار فقال شيطان الكافر لشيطان المؤمن مالك مهزول قال أنا مع رجل إذا أكل سمى الله فأظل جائعا وإذا شرب سمى الله فأظل عطشانا وإذا لبس سمى الله فأظل عريانا وإذا أدهن سمى الله فأظل شعثا فقال لكني مع رجل لا يفعل شيئا من ذلك فأنا أشاركه في طعامه وشرابه ولباسه وكان محمد بن واسع يقول كل يوم بعد صلاة الصبح اللهم إنك سلطت علينا عدوا بصيرا بعيوبنا يرانا هو وقبيله من حيث لا نراهم اللهم فآيسه منا كما آيسته من رحمتك وقنطه منا كما قنطته من عفوك وباعد بيننا وبينه كما باعدت بينه وبين رحمتك إنك على كل شيء قدير قال فتمثل له إبليس يوما في طريق المسجد فقال له يا ابن واسع هل تعرفني قال ومن أنت قال أنا إبليس فقال وما تريد قال أريد أن لا تعلم أحد هذه الاستعاذة ولا أتعرض لك قال والله لا أمنعها ممن أراد فاصنع ما شئت وعن عبد الرحمن ابن أبي ليلى قال كان شيطان يأتي النبي صلى الله عليه وسلم بيده شعلة من نار فيقوم بين يديه وهو يصلي فيقرأ ويتعوذ فلا يذهب فأتاه جبرائيل عليه السلام فقال له قل أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ومن فتن الليل والنهار ومن طوارق الليل والنهار إلا طارقا يطرق بخير يا رحمن فقال ذلك فطفئت شعلته وخر على وجهه[1] وقال الحسن نبئت أن جبرائيل عليه السلام أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال إن عفريتا من الجن يكيدك فإذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي[2] وقال صلى الله عليه وسلم أتاني الشيطان فنازعني ثم نازعني فأخذت بحلقه فوالذي بعثني بالحق ما أرسلته حتى وجدت برد ماء لسانه على يدي ولولا دعوة أخي سليمان عليه السلام لأصبح طريحا في المسجد[3] وقال صلى الله عليه وسلم ما سلك عمر فجا إلا سلك الشيطان فجا غير الذي سلكه عمر[4] وهذا لأن القلوب كانت مطهرة عن مرعى الشيطان وقوته وهي الشهوات فمهما طمعت في أن يندفع الشيطان عنك بمجرد الذكر كما اندفع عن عمر رضي الله عنه كان محالا وكنت كمن يطمع أن يشرب دواء قبل الاحتماء والمعدة مشغولة بغليظ الأطعمة ويطمع أن ينفعه كما نفع الذي شربه بعد الاحتماء وتخلية المعدة والذكر الدواء والتقوى احتماء وهي تخلي القلب عن الشهوات فإذا نزل الذكر قلبا فارغا عن غير الذكر اندفع الشيطان كما تندفع العلة بنزول الدواء في المعدة الخالية عن الأطعمة قال الله تعالى إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب وقال تعالى كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير ومن ساعد الشيطان بعمله فهو مواليه وإن ذكر الله

---

[1] حديث عبد الرحمن بن أبي ليلى كان الشيطان يأتي النبي صلى الله عليه وسلم بيده شعلة من نار الحديث أخرجه ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان هكذا مرسلا ولمالك في الموطأ نحوه عن يحيى بن سعيد مرسلا ووصله ابن عبد البر في التمهيد من رواية يحيى ابن محمد بن عبد الرحمن بن سعد بن زرارة عن عياش الشامي عن ابن مسعود ورواه أحمد والبزار من حديث عبد الرحمن بن حبيش وقيل له كيف صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة كادته الشياطين فذكر نحوه

[2] حديث الحسن نبئت أن جبريل أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال إن عفريتا من الجن يكيدك الحديث أخرجه ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان هكذا مرسلا

[3] حديث أتاني شيطان فنازعني ثم نازعني فأخذت بحلقه الحديث أخرجه ابن أبي الدنيا من رواية الشعبي مرسلا هكذا وللبخاري من حديث أبي هريرة أن عفريتا من الجن تفلت علي البارحة أو كلمة نحوها ليقطع علي صلاتي فأمكنني الله منه الحديث والنسائي في الكبرى من حديث عائشة كان يصلي فأتاه الشيطان فأخذه فصرعه فخنقه وقال حتى وجدت برد لسانه على يدي الحديث وإسناده جيد

[4] حديث ما سلك عمر فجا إلا سلك الشيطان فجا غير فجه متفق عليه من حديث سعد بن أبي وقاص بلفظ يا ابن الخطاب ما لقيك الشيطان سالكا فجا الحديث

بلسانه وإن كنت تقول الحديث قد ورد مطلقا بأن الذكر يطرد الشيطان[5] ولم تفهم أن أكثر عمومات الشرع مخصوصة بشروط نقلها علماء الدين فأنظر إلى نفسك فليس الخبر كالعيان وتأمل أن منتهى ذكرك وعبادتك الصلاة فراقب قلبك إذا كنت في صلاتك كيف يجاذبه الشيطان إلى الأسواق وحساب العالمين وجواب المعاندين وكيف يمر بك في أودية الدنيا ومهالكها حتى إنك لا تذكر ما قد نسيته من فضول الدنيا إلا في صلاتك ولا يزدحم الشيطان على قلبك إلا إذا صليت فالصلاة محك القلوب فبها يظهر محاسنها ومساويها فالصلاة لا تقبل من القلوب المشحونة بشهوات الدنيا فلا جرم لا ينطرد عنك الشيطان بل ربما يزيد عليك الوسواس كما أن الدواء قبل الاحتماء ربما يزيد عليك الضرر فإن أردت الخلاص من الشيطان فقدم الاحتماء بالتقوى ثم أردفه بدواء الذكر يفر الشيطان منك كما فر من عمر رضي الله عنه ولذلك قال وهب بن منبه اتق الله ولا تسب الشيطان في العلانية وأنت صديقه في السر أي أنت مطيع له وقال بعضهم يا عجبا لمن يعصى المحسن بعد معرفته بإحسانه ويطيع اللعين بعد معرفته بطغيانه وكما أن الله تعالى قال ادعوني استجب لكم وأنت تدعوه ولا يستجيب لك فكذلك تذكر الله ولا يهرب الشيطان منك لفقد شروط الذكر والدعاء قيل لإبراهيم بن أدهم ما بالنا ندعو فلا يستجاب لنا وقد قال تعالى ادعوني استجب لكم قال لأن قلوبكم ميتة قيل وما الذي أماتها قال ثمان خصال عرفتم حق الله ولم تقوموا بحقه وقرأتم القرآن ولم تعملوا بحدوده وقلتم نحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تعملوا بسنته وقلتم نخشى الموت ولم تستعدوا له وقال تعالى إن الشيطان لكم عدوا فاتخذوه عدوا فواطأتموه على المعاصي وقلتم نخاف النار وأرهقتم أبدانكم فيها وقلتم نحب الجنة ولم تعملوا لها وإذا قمتم من فرشكم رميتم عيوبكم وراء ظهوركم وافترشتم عيوب الناس أمامكم فأسخطتم ربكم فكيف يستجيب لكم فإن قلت فالداعي إلى المعاصي المختلفة شيطان واحد أو شياطين مختلفون فاعلم أنه لا حاجة لك إلى معرفة ذلك في المعاملة فاشتغل بدفع العدو ولا تسأل عن صفته كل البقل من حيث يؤتي ولا تسأل عن المبقلة ولكن الذي يتضح بنور الاستبصار في شواهد الأخبار أنهم جنود مجندة وأن لكل نوع من المعاصي شيطانا يخصه ويدعو إليه فأما طريق الاستبصار فذكره يطول ويكفيك القدر الذي ذكرناه وهو أن اختلاف المسببات يدل على اختلاف الأسباب كما ذكرناه في نور النار وسواد الدخان وأما الأخبار فقد قال مجاهد لإبليس خمسة من الأولاد قد جعل كل واحد منهم على شيء من أمره ثبر والأعور ومبسوط وداسم وزلنبور فأما ثبر فهو صاحب المصائب الذي يأمر بالثبور وشق الجيوب ولطم الخدود ودعوى الجاهلية وأما الأعور فإنه صاحب الزنا يأمر به ويزينه وأما مبسوط فهو صاحب الكذب وأما داسم فإنه يدخل مع الرجل إلى أهله يرميهم بالعيب عنده ويغضبه عليهم وأما زلنبور فهو صاحب السوق فبسببه لا يزالون متظلمين وشيطان الصلاة يسمى خنزب[2] وشيطان الوضوء يسمى الولهان[3] وقد ورد في ذلك أخبار كثيرة وكما أن الشياطين فيهم كثرة فكذلك في الملائكة وقد ذكرنا في كتاب الشكر السر في كثرة الملائكة واختصاص كل واحد منهم بعمل منفرد به وقد قال أبو أمامة الباهلي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وكل بالمؤمن مائة وستون ملكا يذبون عنه ما لم يقدر عليه من ذلك للبصر سبعة أملاك يذبون عنه كما يذب الذباب عن قصعة العسل في اليوم الصائف وما لو بدا لكم لرأيتموه على كل سهل وجبل كل باسط يده فاغر فاه ولو وكل العبد إلى نفسه طرفة عين لاختطفته الشياطين[4] وقال أيوب بن يونس بن يزيد بلغنا أنه يولد من أبناء الإنس من أبناء الجن ثم ينشئون معهم وروى جابر ابن عبد الله أن آدم عليه السلام لما هبط إلى الأرض قال يارب هذا الذي جعلت بيني وبينه عداوة إن لم تعني عليه لا أقوى عليه قال لا يولد لك ولد إلا

---

[1] الحديث الوارد بأن الذكر يا عمر يطرد الشيطان تقدم

[2] حديث إن شيطان الصلاة يسمى خنزب أخرجه مسلم من حديث عثمان بن أبي العاص وقد تقدم أول الحديث

[3] حديث إن شيطان الوضوء يسمى الولهان تقدم وهو عند الترمذي من حديث أبي

[4] حديث أبي أمامة وكل بالمؤمن مائة وستون ملكا يذبون عنه الحديث أخرجه ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان والطبراني في المعجم الكبير بإسناد ضعيف

وكل به ملك قال يارب زدني قال أجزي بالسيئة سيئة وبالحسنة عشرا إلى ما أريد قال رب زدني قال باب التوبة مفتوح ما دام في الجسد الروح قال إبليس يارب هذا العبد الذي كرمته علي إن لا تعني عليه لا أقوى عليه قال لا يولد له ولد إلا ولد لك ولد قال يارب زدني قال تجري منهم مجرى الدم وتتخذون صدورهم بيوتا قال رب زدني قال أجلب عليهم بخيلك ورجلك إلى قوله غرورا وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خلق الله الجن ثلاثة أصناف صنف حيات وعقارب وخشاش الأرض وصنف كالريح في الهواء وصنف عليهم الثواب والعقاب وخلق الله تعالى الإنس ثلاثة أصناف صنف كالبهائم كما قال تعالى لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل وصنف أجسامهم أجسام بني آدم وأرواحهم أرواح الشياطين وصنف في ظل الله تعالى يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله[1]
وقال وهيب بن الورد بلغنا أن إبليس تمثل ليحيى بن زكريا عليهما السلام وقال إني أريد أن أنصحك قال لا حاجة لي في نصحك ولكن أخبرني عن بني آدم قال هم عندنا ثلاثة أصناف أما صنف منهم وهم أشد الأصناف علينا نقبل على أحدهم حتى نفتنه ونتمكن منه فيفزع إلى الاستغفار والتوبة فيفسد علينا كل شيء أدركنا منه ثم نعود إليه فيعود فلا نحن نيأس منه ولا نحن ندرك منه حاجتنا فنحن منه في عناء وأما الصنف الآخر فهم في أيدينا بمنزل الكرة في أيدي صبيانكم نقلبهم كيف شئنا قد كفونا أنفسهم وأما الصنف الثالث فهم مثلك معصومون لا نقدر منهم على شيء فإن قلت فكيف يتمثل الشيطان لبعض الناس دون البعض وإذا رأى صورة فهل هي صورته الحقيقية أو هو مثال يمثل له به فإن كان على صورته الحقيقية فكيف يرى بصور مختلفة وكيف يرى في وقت واحد في مكانين وعلى صورتين حتى يراه شخصان بصورتين مختلفتين فأعلم أن الملك والشيطان لهما صورتان هي حقيقة صورتهما ولا تدرك حقيقة صورتهما بالمشاهدة إلا بأنوار النبوة فما رأى النبي صلى الله عليه وسلم جبرائيل عليه السلام في صورته إلا مرتين[2] وذلك أنه سأله أن يريه نفسه على صورته فواعده بالبقيع وظهر له بحراء فسد الأفق من المشرق إلى المغرب ورآه مرة أخرى على صورته ليلة المعراج عند سدرة المنتهى وإنما كان يراه في صورة الآدمي غالبا[3] فكان يراه في صورة دحية الكلبي[4] وكان رجلا حسن الوجه والأكثر أنه يكاشف أهل المكاشفة من أرباب القلوب بمثال صورته فيتمثل الشيطان له في اليقظة فيراه بعينه ويسمع كلامه بأذنه فيقوم ذلك مقام حقيقة صورته كما ينكشف في المنام لأكثر الصالحين وإنما المكاشف في اليقظة هو الذي انتهى إلى رتبة لا يمنعه اشتغال الحواس بالدنيا عن المكاشفة التي تكون في المنام فيرى في اليقظة ما يراه غيره في المنام كما روى عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أن رجلا سأل ربه أن يريه موضع الشيطان من قلب ابن آدم فرأى في النوم جسد رجل شبه البلور يرى داخله من خارجه ورأى الشيطان في صورة ضفدع قاعد على منكبه الأيسر بين منكبه وأذنه له خرطوم طويل دقيق قد أدخله من منكبه الأيسر إلى قلبه يوسوس إليه فإذا ذكر الله تعالى خنس ومثل هذا قد يشاهد بعينه في اليقظة فقد رآه بعض المكاشفين في صورة كلب جاثم على جيفة يدعو الناس إليها وكانت الجيفة مثال الدنيا وهذا يجري مجرى مشاهدة صورته الحقيقية فإن القلب لا بد وأن تظهر فيه حقيقة من الوجه الذي يقابل عالم الملكوت وعند ذلك يشرق أثره على وجهه الذي يقابل عالم الملك والشهادة لأن

---

[1] حديث أبي الدرداء خلق الله الجن ثلاثة أصناف صنف حيات وعقارب الحديث أخرجه ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان وابن حبان في الضعفاء في ترجمة يزيد بن سنان وضعفه والحاكم نحوه مختصرا في الجن فقط ثلاثة أصناف من حديث أبي ثعلبة الخشني وقال صحيح الإسناد

[2] حديث أنه صلى الله عليه وسلم ما رأى جبريل في صورته إلا مرتين أخرجه الشيخان من حديث عائشة وسئلت هل رأى محمد ربه وفيه ولكنه رأى جبريل في صورته مرتين

[3] حديث أنه كان يرى جبريل في صورة الآدمي غالب أخرجه الشيخان من حديث عائشة وسئلت فأين قوله ثم دنا فتدلى قالت ذاك جبريل كان يأتيه في صورة الرجل الحديث

[4] حديث أنه كان يرى جبريل في صورة دحية الكلبي أخرجه الشيخان من حديث أسامة بن زيد أن جبريل أتى النبي صلى الله عليه وسلم وعنده أم سلمة فجعل يحدث ثم قام قال النبي صلى الله عليه وسلم لأم سلمة من هذا قالت دحية الحديث

أحدهما متصل بالآخر وقد بينا أن القلب له وجهان وجه إلى عالم الغيب وهو مدخل الإلهام والوحي ووجه إلى عالم الشهادة فالذي يظهر منه في الوجه الذي يلي جانب عالم الشهادة لا يكون إلا صورة متخيلة لأن عالم الشهادة كله متخيلات إلا أن الخيال تارة يحصل من النظر إلى ظاهر عالم الشهادة بالحس فيجوز أن لا تكون الصورة على وفق المعنى حتى يرى شخصا جميل الصورة وهو خبيث الباطن قبيح السر لأن عالم الشهادة عالم كثير التلبيس أما الصورة التي تحصل في الخيال من إشراق عالم الملكوت على باطن سر القلوب فلا تكون إلا محاكية للصفة وموافقة لها لأن الشيطان في صورة كلب وضفدع للصفة وموافقة لها فلا جرم لا يرى المعنى القبيح إلا بصورة قبيحة فيرى الشيطان في صورة كلب وضفدع وخنزير وغيرها ويرى الملك في صورة جميلة فتكون تلك الصورة عنوان المعاني ومحاكية لها بالصدق ولذلك يدل القرد والخنزير في النوم على إنسان خبيث وتدل الشاة على إنسان سليم الصدر وهكذا جميع أبواب الرؤيا والتعبير وهذه أسرار عجيبة وهي من أسرار عجائب القلب ولا يليق ذكرها بعلم المعاملة وإنما المقصود أن تصدق بأن الشيطان ينكشف لأرباب القلوب وكذلك الملك تارة بطريق التمثيل والمحاكاة كما يكون ذلك في النوم وتارة بطريق الحقيقة والأكثر هو التمثيل بصورة محاكية للمعنى هو مثال المعنى لا عين المعنى إلا أنه يشاهد بالعين مشاهدة محققة وينفرد بمشاهدته المكاشف دون من حوله كالنائم.

بيان ما يؤاخذ به العبد من وساوس القلوب وهمها وخواطرها وقصودها وما يعفى عنه ولا يؤاخذ به

اعلم أن هذا أمر غامض وقد وردت فيه آيات وأخبار متعارضة يلتبس طريق الجمع بينها إلا على سماسرة العلماء بالشرع فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال عفى عن أمتي ما حدثت به نفوسها ما لم تتكلم به أو تعمل به[1] وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله تعالى يقول للحفظة إذا هم عبدي بسيئة فلا تكتبوها فإن عملها فاكتبوها سيئة وإذا هم بحسنة لم يعملها فاكتبوها حسنة فإن عملها فاكتبوها عشرا[2] وقد خرجه البخاري ومسلم في الصحيحين وهو دليل على العفو عن عمل القلب وهمه بالسيئة وفي لفظ آخر من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ومن هم بحسنة فعملها كتبت له إلى سبعمائة ضعف ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب عليه وإن عملها كتبت وفي لفظ آخر وإذا تحدث بأن يعمل سيئة فأنا أغفرها له ما لم يعملها وكل ذلك يدل على العفو فأما ما يدل على المؤاخذة فقوله سبحانه إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وقوله تعالى ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا فدل على أن عمل الفؤاد كعمل السمع والبصر فلا يعفي عنه وقوله تعالى ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه وقوله تعالى لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والحق عندنا في هذه المسألة لا يوقف عليه ما لم تقع الإحاطة بتفصيل أعمال القلوب من مبدأ ظهورها إلى أن يظهر العمل على الجوارح فنقول أول ما يرد على القلب الخاطر كما لو خطر له مثلا صورة امرأة وأنها وراء ظهره في الطريق لو التفت إليها لرآها والثاني هيجان الرغبة إلى النظر وهو حركة الشهوة في الطبع وهذا يتولد من الخاطر الأول ونسميه ميل الطبع ويسمى الأول حديث النفس والثالث حكم القلب بأن هذا ينبغي أن يفعل أي ينبغي أن ينظر إليها فإن الطبع إذا مال لم تنبعث الهمة والنية ما لم تندفع الصوارف فإنه قد يمنعه حياء أو خوف من الالتفات وعدم هذه الصوارف ربما يكون بتأمل وهو على كل حال حكم من جهة العقل ويسمى هذا اعتقادا وهو يتبع الخاطر والميل الرابع تصميم العزم على الالتفات وجزم النية فيه وهذا نسميه هما بالفعل ونية وقصدا وهذا الهم قد يكون له

---

[1] حديث عفى لأمتى عما حدثت به نفوسها متفق عليه من حديث أبي هريرة إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها الحديث

[2] حديث أبي هريرة يقول الله إذا هم عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه الحديث قال المصنف أخرجه مسلم والبخاري في الصحيحين قلت هو كما قال واللفظ لمسلم فلهذا والله أعلم قدمه في الذكر

مبدأ ضعيف ولكن إذا أصغى القلب إلى الخاطر الأول حتى طالت مجاذبته للنفس تأكد هذا الهم وصار إرادة مجزومة فإذا انجزمت الإرادة فربما يندم بعد الجـزم فيـترك العمل وربما يغفل بعارض فلا يعمل به ولا يلتفت إليه وربما يعوقه عـائق فيتعـذر عليه العمل فههنا أربع أحوال للقلب قبل العمل بالجارحة الخاطر وهو حديث النفس ثم الميل ثم الاعتقاد ثم الهم فنقول أما الخاطر فلا يؤاخذ به لأنه لا يدخل تحت الاختيـار وكـذلك الميل وهيجـان الشـهوة لأنهما لا يدخلان أيضا تحت الاختيار وهما المرادان بقوله صـلى الله عليه وسـلم صـلى الله عليه وسلم عفى عن أمتي ما حدثت به نفوسها فحديث النفس عبـارة عن الخـواطر الـتي تهجس في النفس ولا يتبعها عزم على الفعل فأما الهم والعـزم فلا يسـمى حـديث النفس بل حديث النفس كما روي عن عثمان بن مظعون حيث قال للنبي صلى الله عليه وسلم يا رسـول الله نفسي تحـدثني أن أطلق خولة قـال مهلا إن من سـنتي النكـاح قـال نفسي تحدثني أن أجب نفسي قال مهلا خصاء أمتي دءوب الصيام قال نفسي تحدثني أن أتـرهب قال مهلا رهبانية أمتي الجهـاد والحج قـال نفسي تحـدثني أن أتـرك اللحم قـال مهلا فـإني أحبه ولو أصبته لأكلته ولو سألت الله لأطعمنيه[1] فهذه الخواطر التي ليس معها عزم على الفعل هي حديث النفس ولـذلك شـاور رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم إذ لم يكن معه عزم وهم بالفعل وأما الثالث وهو الاعتقاد وحكم القلب بأنه ينبغي أن يفعل فهذا تـردد بين أن يكون اضطرارا أو اختيارا والأحوال تختلف فيه فالاختياري منه يؤاخذ به والاضـطراري لا يؤاخذ به وأما الرابع وهو الهم بالفعل فإنه مؤاخذ به إلا أنه إن لم يفعل نظر فـإن كـان قد تركه خوفا من الله تعـــالى ونـــدما على همه كتبت له حســـنة لأن همه ســـيئة وامتناعه ومجاهدته نفسه حسـنة والهم على وفق الطبع مما يـدل على تمـام الغفلة عن الله تعـالى والامتناع بالمجاهدة على خلاف الطبع يحتاج إلى قـوة عظيمة فجـده في مخالفة الطبع هو العمل لله تعـالى والعمل لله تعـالى أشد من جـده في موافقة الشـيطان بموافقة الطبع فكتب له حسـنة لأنه رجح جـده في الامتنـاع وهمه به على همه بالفعل وإن تعـوق الفعل بعـائق أو تركه بعـذر لا خوفا من الله تعـالى كتبت عليه سـيئة فـإن همه فعل من القلب اختيـاري والـدليل على هـذا التفصـيل ما روى في الصـحيح مفصلا في لفظ الحـديث قـال رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم قـالت الملائكة عليهم السـلام رب ذاك عبـدك يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر به فقال ارقبوه فـإن هو عملها فاكتبوها له بمثلها وإن تركها فاكتبوها له حسنة إنما تركها من جرائي[2] وحيث قال فإن لم يعملها أراد به تركها لله فأما إذا عزم على فاحشة فتعذرت عليه بسبب أو غفلة فكيف تكتب له حسنة وقد قـال صـلى الله عليه وسـلم إنمـا يحشـر النـاس على نياتهم[3] ونحن نعلم أن من عـزم ليلا على أن يصبح ليقتل

---

[1] حديث إن عثمان بن مظعون قال يا رسول الله نفسي تحدثني أن أطلق خولة قال مهلا إن من سنتي النكاح الحديث أخرجه الترمذي الحكيم في نوادر الأصول من رواية علي بن زيد عن سعيد بن المسيب مرسلا نحوه وفيه القاسم بن عبيد الله العمري كذبه أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وللدارمي من حديث سعد بن أبي وقاص لما كان من أمر عثمان بن مظعون الذي كان من ترك النساء بعث إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا عثمان إني لم أومر بالرهبانة الحديث وفيه من رغب عن سنتي فليس مني وهو عندكم بلفظ رد رسول الله صلى الله عليه وسلم على عثمان بن مظعون التبتل ولو أذن له لاختصينا وللبغوي والطبراني في معجمي الصحابة بإسناد حسن من حديث عثمان بن مظعون أنه قال يا رسول الله إني رجل تشق علي هذه العزوبة في المغازي فتأذن لي يا رسول الله في الخصاء فأختصي قال لا ولكن عليك يا ابن مظعون بالصيام فإنه مجفرة ولأحمد والطبراني بإسناد جيد من حديث عبد الله بن عمرو خصاء أمتي الصيام والقيام وله من حديث سعيد بن العاص بإسناد فيه ضعف إن عثمان بن مظعون قال يا رسول الله ائذن لي في الاختصاء فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله قد أبدلنا بالرهبانية الحنيفية السمحة والتكبير على كل شرف الحديث وابن ماجه بسند ضعيف من حديث عائشة النكاح من سنتي ولأحمد وأبي يعلى من حديث أنس لكل نبي وقال أبو يعلى لكل أمة رهبانية ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله وفيه زيد العمى وهو ضعيف ولأبي داود من حديث أبي أمامة إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله وإسناده جيد

[2] حديث قالت الملائكة رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر الحديث قال المصنف إنه في الصحيح وهو كما قال في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة

[3] حديث إنما يحشر الناس على نياتهم أخرجه ابن ماجة من حديث جابر دون قوله إنما وله من حديث أبي هريرة إنما يبعث الناس على نياتهم وإسنادهما حسن ومسلم من حديث عائشة يبعثهم الله على نياتهم وله من حديث أم سلمة يبعثون على نياتهم

مسلما أو يزني بامرأة فمات تلك الليلة مـات مصـرا ويحشر على نيته وقد هم بسـيئة ولم يعملها والـدليل القـاطع فيه ما روي عن النـبي صـلى الله عليه وسـلم أنه قـال إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتـول في النـار فقيل يا رسـول الله هـذا القاتل فما بـال المقتول قال لأنه أراد قتل صاحبه[1] وهذا نص في أنه صار بمجرد الإرادة من أهل النار مع أنه قتل مظلوما فكيف يظن أن الله لا يؤاخذ بالنية والهم بل كل هم دخل تحت اختيـــــار العبد فهو مؤاخذ به إلا أن يكفره بحسنة ونقض العزم بالندم حسنة فلذلك كتبت له حســنة فأما فوت المراد بعائق فليس بحسـنه وأما الخـواطر وحـديث النفس وهيجـان الرغبة فكل ذلك لا يدخل تحت اختيار فالمؤاخذة به تكليف ما لا يطاق ولذلك لما نـزل قوله تعـالى وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفـوه يحاسـبكم به الله جـاء نـاس من الصـحابة إلى رسـول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا كلفنا ما لا نطيق إن أحـدنا ليحـدث نفسه بما لا يحب أن يثبت في قلبه ثم يحاسب بـذلك فقـال صـلى الله عليه وسـلم لعلكم تقولـون كما قـالت اليهـود سمعنا وعصينا قولوا سمعنا وأطعنا فقالوا سمعنا وأطعنا[2] فأنزل الله الفرج بعد سنة بقوله لا يكلف الله نفسا إلا وسعها فظهر به أن كل ما لا يدخل تحت الوسع من أعمال القلب هو الذي لا يؤاخذ به فهذا هو كشف الغطاء عن هـذا الالتبـاس وكل من يظن أن كل ما يجـري على القلب يسـمى حـديث النفس ولم يفـرق بين هـذه الأقسـام الثلاثة فلا بد وأن يغلط وكيف لا يؤاخذ بأعمال القلب من الكبر والعجب والريـاء والنفـاق والحسد وجملة الخبـائث من أعمال القلب بل السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا أي ما يـدخل تحت الاختيار فلو وقع البصر بغير اختيار على غير ذي محرم لم يؤاخذ به فـإن أتبعها نظـرة ثانية كان مؤاخذا به لأنه مختار فكذا خواطر القلب تجري هذا المجرى بل القلب أولى بمؤاخذته لأنه الأصل قال رسول الله صلى الله عليه وسلم التقوى ههنا وأشار إلى القلب[3] وقال الله تعالى لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم وقال صلى الله عليه وسـلم الإثم حواز القلوب[4] وقال البر ما اطمأن إليه القلب وإن أفتوك وأفتوك[5] حتى إنا نقول إذا حكم القلب المفـتي بإيجـاب شـيء وكـان مخطئا فيه صـار مثابا عليه بل من قد ظن أنه تطهر فعليه أن يصلي فإن صلى ثم تـذكر أنه لم يتوضأ كـان له ثـواب بفعله فـإن تـذكر ثم تركه كـان معاقبا عليه ومن وجد على فراشه امـرأة فظن أنها زوجته لم يعص بوطئها وإن كـانت أجنبية فـإن ظن أنها أجنبية ثم وطئها عصى بوطئها وإن كـانت زوجته وكل ذلك نظر إلى القلب دون الجوارح.

بيان أن الوسواس هل يتصور أن ينقطع بالكلية عند الذكر أم لا

اعلم أن العلمـاء المراقـبين للقلـوب النـاظرين في صـفاتها وعجائبها اختلفـوا في هـذه المسألة على خمس فرق فقالت فرقة الوسوسة تنقطع بذكر الله عز وجل لأنه صـلى الله عليه وسلم قال فإذا ذكر الله خنس[6] والخنس هو السكوت فكأنه يسكت وقالت فرقة لا ينعدم أصله ولكن يجـري في القلب ولا يكـون له أثر لأن القلب إذا صـار مسـتوعبا بالـذكر كـــان محجوبا عن التـــأثر بالوسوسة كالمشـــغول بهمه فإنه قد يتكلم ولا يفهم وإن كـــان الصـوت يمر على سـمعه وقـالت فرقة لا تسـقط الوسوسة ولا أثرها أيضا ولكن تسـقط غلبتها للقلب فكأنه يوسوس من بعد وعلى ضعف وقالت فرقة ينعدم عند الذكر في لحظة

---

[1] حديث إذا التقى بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار الحديث متفق عليه من حديث أبي بكرة

[2] حديث لما نزل قوله تعالى وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله جاء ناس من الصحابة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا كلفنا ما لا نطيق الحديث أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وابن عباس نحوه

[3] حديث التقوى ههنا وأشار إلى القلب أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وقال إلى صدره

[4] حديث الإثم حواز القلوب تقدم في العلم

[5] حديث البر ما اطمأن إليه القلب وإن أفتوك وأفتوك أخرجه الطبراني من حديث أبي ثعلبة ولأحمد نحوه من حديث وابصة وفيه وإن أفتاك الناس وأفتوك وقد تقدما

[6] حديث إذا ذكر الله خنس أخرجه ابن أبي الدنيا وابن عدي من حديث أنس في أثناء حديث إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم الحديث وقد تقدم قريبا

وينعــدم الــذكر في لحظه ويتعاقبــان في أزمنة متقاربة يظن لتقاربها أنها متســاوقة وهي كالكرة التي عليها نقط متفرقة فإنك إذا أدرتها بسرعة تواصلها بالحركة واستدل هؤلاء بأن الخنس قد ورد ونحن نشاهد الوسوسة مع الذكر ولا وجه له إلا هذا وقالت فرقة الوسوسة والذكر يتساوقان في الدوام على القلب تساوقا لا ينقطع وكما أن الإنسـان قد يـرى بعينيه شيئين في حالة واحدة فكذلك القلب قد يكـون مجـرى لشـيئين فقد قـال صـلى الله عليه وسلم ما من عبد إلا وله أربعة أعين عينان في رأسه يبصر بهما أمر دنياه وعينـان في قلبه يبصـر بهمـا أمـر دينـه[1] وإلى هـذا ذهب المحاسبي والصحيح عنـدنا أن كـل هـذه المـذاهب صحيحة ولكن كلها قاصـرة عن الإحاطة بأصـناف الوسـواس وإنما نظر كل واحد منهم إلى صنف واحد من الوسواس فأخبر عنه والوسواس أصناف الأول أن يكون من جهة التلــبيس بالحق فـإن الشـطيان قد يلبس بـالحق فيقـول للإنسـان تـترك التنعم باللـذات فـإن العمر طويل والصبر عن الشهوات طول العمر ألمه عظيم فعند هذا إذا ذكر العبد عظيم حق الله تعالى وعظيم ثوابه وعقابه وقال لنفسه الصبر عن الشهوات شديد ولكن الصبر على النـار أشد منه ولا بد من أحــدهما فــإذا ذكر العبد وعد الله تعــالى وو‌عيــده وجــدد إيمانه ويقينه خنس الشيطان وهرب إذ لا يستطيع أن يقـول له النـار أيسر من الصـبر على المعاصي ولا يمكنه أن يقول المعصية لا تفضي إلى النار فإن إيمانه بكتـاب الله عز وجل يدفعه عن ذلك فينقطع وسواسه وكذلك يوسوس إليه بالعجب بعمله فيقول أي عبد يعـرف الله كما تعرفه ويعبــده كما تعبــده فما أعظم مكانك عند الله تعـالى فيتــذكر العبد حينئذ أن معرفته وقلبه وأعضــاءه الــتي بها عمله وعلمه كل ذلك من خلق الله تعـالى فمن أين يعجب به فيخنس الشيطان إذ لا يمكنه أن يقول ليس هذا من الله فإن المعرفة والإيمان يدفعه فهذا نوع من الوسواس ينقطع بالكلية عن العارفين المستبصرين بنور الإيمان والمعرفة الصـنف الثـاني أن يكـــون وسواسه بتحريك الشـــهوة وهيجانها وهـــذا ينقسم إلى ما يعلم العبد يقينا أنه معصـية وإلى ما يظنه بغـالب الظن فـإن علمه يقينا خنس الشـيطان عن تهـييج يـؤثر في تحريك الشهوة ولم يخنس عن التهييج وإن كان مظنونا فربما يبقى مؤثرا بحيث يحتاج إلى مجاهدة في دفعه فتكون الوسوسة موجودة ولكنها مدفوعة غـير غالبة الصـنف الثـالث أن تكون وسوسة بمجـرد الخـواطر وتـذكر الأحـوال الغالبة والتفكر في غـير الصـلاة مثلا فـإذا أقبل على الذكر تصور أن ينـدفع سـاعة ويعـود وينـدفع ويعـود فيتعـاقب الـذكر والوسوسة ويتصور أن يتساوقا جميعا حـتى يكـون الفهم مشـتملا على فهم معـنى القـراءة وعلى تلك الخواطر كأنهما في موضـعين من القلب وبعيد جـدا أن ينـدفع هـذا الخنس بالكلية بحيث لا يخطر ولكنه ليس محالا إذا قال صلى الله عليه وسـلم من صـلى ركعـتين لم يحـدث فيهما نفسه بشيء من أمر الدنيا غفر له ما تقدم من ذنبه[2] فلولا أنه متصور لما ذكره إلا أنه لا يتصور ذلك إلا في قلب استولى عليه الحب حتى صار كالمستهتر فإنا قد نرى المســتوعب القلب بعدو تـأذى به قد يتفكر بمقـدار ركعـتين وركعـات في مجادلة عـدوه بحيث لا يخطر بباله غـير حـديث عـدوه وكـذلك المسـتغرق في الحب قد يتفكر في محادثة محبوبه بقلبه ويغـوص في فكـره بحيث لا يخطر بباله غـير حـديث محبوبه ولو كلمه غـيره لم يسـمع ولو اجتاز بين يد أحد لكان كأن لا يراه وإذا تصور هـذا في خـوف من عـدو وعند الحـرص على مال وجـاه فكيف لا يتصـور من خـوف النـار والحـرص على الجنة ولكن ذلك عزيز لضـعف الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر وإذا تأملت جملة هذه الأقسام وأصـناف الوسـواس علمت أن لكل مذهب من المـذاهب وجها في محل مخصـوص وبالجملة فـالخلاص من الشـيطان في لحظة أو ساعة غير بعيد ولكن الخلاص منه عمرا طـويلا بعيد جـدا ومحـال في الوجـود ولو تخلص أحد من وساوس الشيطان بـالخواطر وتهـييج الرغبة لتخلص رسـول الله صـلى الله عليه وسلم فقد روي أنه نظر إلى علم ثوبه في الصـلاة فلما سـلم رمى بـذلك الثـوب

---

[1] حديث ما من عبد إلا وله أربعة أعين عينان في رأسه يبصر بهما أمر دنياه وعينان في قلبه يبصر بهما أمر دينه أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث معاذ بلفظ الآخرة مكان دينه وفيه الحسين بن أحمد بن محمد الهروي السماخي الحافظ كذبه الحاكم والآفة منه

[2] حديث من صلى ركعتين لم يحدث فيهما نفسه بشيء من الدنيا تقدم في الصلاة

وقال شغلني عن الصلاة وقال اذهبوا به إلى أبي جهم وائتوني بأنبجانيته[3] وكان في يده خاتم من ذهب فنظر إليه وهو على المنبر ثم رمى به قال نظرة إليه ونظرة إليكم[2] وكان ذلك لوسوسة الشيطان بتحريك لذة النظر إلى خاتم الـذهب وعلم الثـوب وكـان ذلك قبل تحريم الذهب فلذلك لبسه ثم رمى به فلا تنقطع وسوسة عروض الدنيا ونقدها إلا بـالرمي والمفارقة فما دام يملك شيئا وراء حاجته ولو دينارا واحدا لا يدعه الشيطان في صلاته من الوسوسة في الفكر في ديناره وأنه كيف يحفظه وفيمـاذا ينفقه وكيف يخفيه حـتى لا يعلم به أحد وكيف يظهره حتى يتبـاهى به إلى غـير ذلك من الوسـاوس فمن أنشب مخالبه في الدنيا وطمع في أن يتخلص من الشطيان كان كمن انغمس في العسل وظن أن الـذباب لا يقع عليه فهو محال فالدنيا بـاب عظيم لوسوسة الشـيطان وليس له بـاب واحد بل أبـواب كثيرة قال حكيم من الحكماء الشيطان يأتي ابن آدم من قبل المعاصي فإن امتنع أتـاه من وجه النصيحة حـتى يلقيه في بدعة فـإن أبى أمـره بـالتحرج والشـدة حـتى يحـرم ما ليس بحـرام فـإن أبى شـككه في وضـوئه وصـلاته حـتى يخرجه عن العلم فـإن أبى خفف عليه أعمال البر حتى يراه الناس صابرا عفيفا فتميل قلـوبهم إليه فيعجب نفسه وبه يهلكه وعند ذلك يشتد إلحاحه فإنها آخر درجة ويعلم أنه لو جاوزها أفلت منه إلى الجنة.

بيان سرعة تقلب القلب وانقسام القلوب في التغير والثبات

اعلم أن القلب كما ذكرناه تكتنفه الصـفات الـتي ذكرناها وتنصب إليه الآثـار والأحـوال من الأبواب التي وصفناها فكأنه هدف يصاب على الدوام من كل جانب فإذا أصابه شيء يتـأثر به أصابه من جانب آخر ما يضاده فتتغير صفته فـإن نـزل به الشـيطان فـدعاه إلى الهـوى نـزل به الملك وصـرفه عنه وإن جذبه شـيطان إلى شر جذبه شـيطان آخر إلى غـيره وإن جذبه ملك إلى خير جذبه آخر إلى غيره فتارة يكون متنازعا بين ملكين وتارة بين شيطانين وتـارة بين ملك وشـيطان لا يكـون قط مهملا وإليه الإشـارة بقوله تعـالى ونقلب أفئـدتهم وأبصـارهم ولاطلاع رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم على عجيب صـنع الله تعـالى في عجائب القلب وتقلبه كان يحلف به فيقول لا ومقلب القلوب[3] وكان كثيرا ما يقول يا مقلب القلوب ثبت قلـبي على دينك قـالوا أو تخـاف يا رسـول الله قـال وما يؤمنـني والقلب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء[4] وفي لفظ آخر إن شاء أن يقيمه أقامه وإن شـاء أن يزيغه أزاغه وضـرب له صـلى الله عليه وسـلم ثلاثة أمثلة فقـال مثل القلب مثل العصفور يتقلب في كل ساعة[5] وقال صلى الله عليه وسلم مثل القلب في تقلبه كالقدر إذا استجمعت غليانا[6] وقال مثل القلب كمثل ريشة في أرض فلاة تقلبها الرياح ظهرا لبطن[7] وهذه التقلبات وعجائب صنع الله تعالى في تقلبها من حيث لا تهدي إليه المعرفة لا يعرفها إلا المراقبون والمراعون لأحوالهم مع الله تعـالى والقلـوب في الثبـات على الخـير والشر والـتردد بينهما ثلاثة قلب عمر بـالتقوى وزكا بالرياضة وطهر عن خبـائث الأخلاق تنقدح فيه خواطر الخير من خـزائن الغيب ومـداخل الملكـوت فينصـرف العقل إلى التفكر

---

[1] حديث أنه صلى الله عليه وسلم نظر إلى علم في ثوبه في الصلاة الحديث تقدم

[2] حديث كان في يده خاتم من ذهب فنظر إليه على المنبر فرماه فقال نظرة إليكم أخرجه النسائي من حديث ابن عباس وتقدم في الصلاة

[3] حديث لا ومقلب القلوب أخرجه البخاري من حديث ابن عمر

[4] حديث يا مثبت القلوب ثبت قلبي على دينك الحديث أخرجه الترمذي من حديث أنس وحسنه والحاكم من حديث جابر وقال ابن أبي الدنيا صحيح على شرط مسلم ولمسلم من حديث عبد الله ابن عمرو اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك والنسائي في الكبرى و ابن ماجه والحاكم وصححه على شرط البخاري ومسلم من حديث النواس بن سمعان ما من قلب إلا بين أصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أقامه وإن شاء أزاغه والنسائي في الكبرى بإسناد جيد نحوه من حديث عائشة

[5] حديث مثل القلب مثل العصفور يتقلب في كل ساعة أخرجه الحاكم في المستدرك وقال صحيح على شرط مسلم والبيهقي في الشعب من حديث أبي عبيدة بن الجراح قلت رواه البغوي في معجمه من حديث أبي عبيد غير منسوب وقال لا ادري له صحبة أم لا

[6] حديث مثل القلب في تقلبه كالقدر إذا استجمعت غليانا أخرجه أحمد والحاكم وقال صحيح على شرط البخاري من حديث المقداد بن الأسود

[7] حديث مثل القلب كمثل ريشة بأرض فلاة الحديث أخرجه الطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب من حديث أبي موسى الأشعري بإسناد حسن وللبزار نحوه من حديث أنس بإسناد ضعيف

فيما خطر له ليعرف دقائق الخير فيه ويطلع على أسرار فوائده فينكشف له بنور البصيرة وجهه فيحكم بأنه لا بد من فعله فيستحثه عليه ويدعوه إلى العمل به وينظر الملك إلى القلب فيجده طيبا في جوهره طاهرا بتقواه مستنيرا بضياء العقل معمورا بأنوار المعرفة فيراه صالحا لأن يكون له مستقرا ومهبطا فعند ذلك يمده بجنود لا ترى ويهديه إلى خيرات أخرى حتى ينجر الخير إلى الخير وكذلك على الدوام ولا يتناهى إمداده بالترغيب بالخير وتيسير الأمر عليه وإليه الإشارة بقوله تعالى فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وفي مثل هذا القلب يشرق نور المصباح من مكشاة الربوبية حتى لا يخفى فيه الشرك الخفي الذي هو أخفى من دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء فلا يخفى على هذا النور خافية ولا يروج عليه شيء من مكايد الشيطان بل يقف الشيطان ويوحي زخرف القول غرورا فلا يلتفت إليه وهذا القلب بعد طهارته من المهلكات يصير على القرب معمورا بالمنجيات التي سنذكرها من الشكر والصبر والخوف والرجاء والفقر والزهد والمحبة والرضا والشوق والتوكل والتفكر والمحاسبة وغير ذلك وهو القلب الذي أقبل الله عز وجل بوجهه عليه وهو القلب المطمئن المراد بقوله تعالى ألا بذكر الله تطمئن القلوب وبقوله عز وجل يا أيتها النفس المطمئنة القلب الثاني القلب المخذول المشحون بالهوى المدنس بالأخلاق المذمومة والخبائث المفتوح فيه أبواب الشياطين المسدود عنه أبواب الملائكة ومبدأ الشر فيه أن ينقدح فيه خاطر من الهوى ويهجس فيه فينظر القلب إلى حاكم العقل ليستفتي منه ويستكشف وجه الصواب فيه فيكون العقل قد ألف خدمة الهوى وأنس به واستمر على استنباط الحيل له وعلى مساعدة الهوى فتستولي النفس وتساعد عليه فينشرح الصدر بالهوى وتنبسط فيه ظلماته لانحباس جند العقل عن مدافعته فيقوى سلطان الشيطان لاتساع مكانه بسبب انتشار الهوى فيقبل عليه بالتزيين والغرور والأماني ويوحي بذلك زخرفا من القول غرورا فيضعف سلطان الإيمان بالوعد والوعيد ويخبو نور اليقين لخوف الآخرة إذ يتصاعد عن الهوى دخان مظلم إلى القلب يملأ جوانبه حتى تنطفيء أنواره فيصير العقل كالعين التي ملأ الدخان أجفانها فلا يقدر على أن ينظر وهكذا تفعل غلبة الشهوة بالقلب حتى لا يبقى للقلب إمكان التوقف والاستبصار ولو بصره واعظ وأسمعه ما هو الحق فيه عمى عن الفهم وصم عن السمع وهاجت الشهوة فيه وسطا الشيطان وتحركت الجوارح على وفق الهوى فظهرت المعصية إلى عالم الشهادة من عالم الغيب بقضاء من الله تعالى وقدره وإلى مثل هذا القلب الإشارة بقوله تعالى أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا وبقوله عز وجل لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون وبقوله سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ورب قلب هذا حاله بالإضافة إلى بعض الشهوات كالذي يتورع عن بعض الأشياء ولكنه إذا رأى وجها حسنا لم يملك عينه وقلبه وطاش عقله وسقط مساك قلبه أو كالذي لا يملك نفسه فيما فيه الجاه والرياسة والكبر ولا يبقى معه مسكة للتثبت عند ظهور أسبابه أو كالذي لا يملك نفسه عند الغضب مهما استحقر وذكر عيب من عيوبه أو كالذي لا يملك نفسه عند القدرة على أخذ درهم أو دينار بل يتهالك عليه تهالك الواله المستهتر فينسى فيه المروءة والتقوى فكل ذلك لتصاعد دخان الهوى إلى القلب حتى يظلم وتنطفيء منه أنواره فينطفيء نور الحياء والمروءة والإيمان ويسعى في تحصيل مراد الشيطان القلب الثالث قلب تبدو فيه خواطر الهوى فتدعوه إلى الشر فيلحقه خاطر الإيمان فيدعوه إلى الخير فتنبعث النفس بشهوتها إلى نصرة خاطر الشر فتقوى الشهوة وتحسن التمتع والتنعم فينبعث العقل إلى خاطر الخير ويدفع في وجه الشهوة ويقبح فعلها وينسبها إلى الجهل ويشبهها بالبهيمة والسبع في تهجمها على الشر وقلة اكتراثها بالعواقب فتميل النفس إلى نصح العقل فيحمل الشيطان حملة على العقل فيقوي داعي الهوى ويقول ما هذا التحرج البارد ولم تمتنع عن هواك فتؤذي نفسك وهل ترى أحدا من أهل عصرك يخالف هواه أو يترك غرضه أفتترك لهم ملاذ الدنيا يتمتعون بها وتحجر على نفسك حتى تبقى محروما شقيا متعوبا يضحك عليك أهل الزمان أفتريد أن يزيد منصبك على فلان وفلان وقد فعلوا مثل ما اشتهيت ولم يمتنعوا أما ترى العالم الفلاني ليس يحترز من مثل

ذلك ولو كان ذلك شـرا لامتنع منه فتميل النفس إلى الشـيطان وتنقلب إليه فيحمل الملك حملة على الشــيطان ويقــول هل لك إلا من أتبع لــذة الحــال ونسي العاقبة أفتقنع بلــذة يسيرة وتترك لذة الجنة ونعيمها أبد الآباد أم تسـتثقل ألم الصـبر عن شـهوتك ولا تسـتثقل ألم النار أتغـتر بغفلة النـاس عن أنفسـهم واتبـاعهم هـواهم ومسـاعدتهم الشـيطان مع أن عذاب النار لا يخففه عنك معصية غيرك أرأيت لو كنت في يـوم صـائف شـديد الحر ووقف الناس كلهم في الشمس وكان لك بيت بارد أكنت تساعد الناس أو تطلب لنفسك الخلاص فكيف تخالف الناس خوفا من حر الشمس ولا تخالفهم خوفا من حر النـار فعند ذلك تمتثل النفس إلى قول الملك فلا يزال يتردد بين الجندين متجاذبا بين الحزبين إلى أن يغلب على القلب ما هو أولى به فإن كانت الصفات التي في القلب الغالب عليها الصفات الشــيطانية الــتي ذكرناها غلب الشــيطان ومــال القلب إلى جنسه من أحــزاب الشــيطان معرضا عن حزب الله تعالى وأوليائه ومساعدا لحـزب الشـيطان وأعدائه وجـرى على جوارحه بسـابق القدر ما هو سبب بعـده عن الله تعـالى وإن كـان الأغلب على القلب الصـفات الملكية لم يصغ القلب إلى إغـواء الشـيطان وتحريضه إيـاه على العاجلة وتهوينه أمر الآخـرة بل مـال إلى حزب الله تعـالى وظهـرت الطاعة بمـوجب ما سـبق من القضـاء على جوارحه فقلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن أي بين تجـاذب هـذين الجنـدين وهو الغـالب أعـني التقليب والانتقـال من حـزب إلى حـزب أما الثبـات على الـدوام مع حـزب الملائكة أو مع حزب الشيطان فنادر من الجانبين وهذه الطاعـات والمعاصي تظهر من خـزائن الغيب إلى عالم الشهادة بواسطة خزانة القلب فإنه من خزائن الملكوت وهي أيضا إذا ظهـرت كـانت علامات تعرف أرباب القلوب سابق القضـاء فمن خلق للجنة يسـرت له أسـباب الطاعـات ومن خلق للنار يسرت له أسباب المعاصي وسلط عليه أقران السوء وألقى في قلبه حكم الشيطان فإنه بأنواع الحكم يغر الحمقى بقوله إن الله رحيم فلا تبـال وإن النـاس كلهم ما يخـافون الله فلا تخـالفهم وإن العمر طويل فاصـبر حـتى تتـوب غـدا يعـدهم ويمـنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا يعدهم التوبة ويمـنيهم المغفـرة فيهلكهم بـإذن الله تعـالى بهـذه الحيل وما يجـري مجراها فيوسع قلبه لقبـول الغـرور ويضـيقه عن قبـول الحق وكل ذلك بقضاء من الله وقدر فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صـدره ضـيقا حرجا كأنما يصـعد في السـماء إن ينصـركم الله فلا غـالب لكم وإن يخـذلكم فمن ذا الذي ينصـركم من بعـده فهو الهـادي والمضل يفعل ما يشـاء ويحكم ما يريد لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه خلق الجنة وخلق لها أهلا فاستعملهم بالطاعة وخلق النــار وخلق لها أهلا فاسـتعمله بالمعاصي وعـرف الخلق علامة أهل الجنة وأهل النـار فقـال إن الأبـرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم ثم قـال تعـالى فيما روى عن نبيه صـلى الله عليه وسـلم هؤلاء في الجنة ولا أبالي وهؤلاء في النار ولا أبالي[1] فتعالى الله الملك الحق لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون ولنقتصر على هذا القدر اليسير من ذكر عجائب القلب فإن استقصـاءه لا يليق بعلم المعاملة وإنما ذكرنا منه ما يحتاج إليه لمعرفة أغوار علوم المعاملة وأسرارها لينتفع بها من لا يقنع بالظواهر ولا يجتزئ بالقشر عن اللباب بل يتشوق إلى معرفة دقـائق حقـائق الأسـباب وفيما ذكرنـاه كفاية له ومقنع إن شـاء الله تعـالى والله ولي التوفيق تم كتاب عجائب القلب ولله الحمد والمنة ويتلوه كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق والحمد لله وحده وصلى الله على كل عبد مصطفى.

---

[1] حديث قال الله عز وجل هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي وهؤلاء إلى النار ولا أبالي أخرجه أحمد وابن حبان من حديث عبد الرحمن بن قتادة السلمي وقال ابن عبد البر في الاستيعاب أنه مضطرب الإسناد